نوفيلا
غمضة
عين
...نوران أشرف ....

المقدمة

تفاجئني صراحة أولئك الذين يعتقدون أنهم يستطيعون أن يُحطموا قيود الحياة، بل ويتفاخروا بذلك أمام أقرانهم حتى يبدو مُثيرون للاهتمام، وهم في حقيقة الأمر مُثيرون للشفقة، فلا توجد قواعد حتى تخترقها أيها الساذج، والقوانين التي وضعتها الدولة، ما هي إلا حبرٌ على ورقٍ مُقوى هدفها التفاخر والتبهنس، فالعالم يجبرنا على اختراق القواعد، وعقولنا تجبرنا على تحطيمها...

في ليلة مُظلمة غشاها السواد، ونجوم متلألئة تلتف حوّل قمرٍ بازغٍ أنار القليل من هذه الليلة المُعتمة، وفي بقعة نائية أسفل غصون الأشجار، وهدير الرياح، كانت حبات الحصى والرمال تتناقل من بقعة إلى الأخرى وترتكن فوق بعضها لتخلق تلة من الرمال.

-يلا يا رمضان قبل ما حد ييجي

قالها ناصر بصوٌتٍ خافت وكلماتٍ حذرة وجهها لصديقه رمضان الذي انهمك بالحفر ونقل الرمال حالما يقوم الآخر بالمراقبة وتأمين الأجواء، أزاح رمضان بعض الأتربة عن ملابسه وقد كان متدثرًا داخل حُفرة عميقة عانى الكثير حتى يستطيع حفرها، فما إن انتهى حتى شرع يقول بتفاخر:

-خلاص خلصت .... يلا انزل بسرعة قبل ما حد يشوفنا

أومأ ناصر إيجابًا ثم تلفت يمينًا ويسارًا قبل أن يتجه صوٌب هذه الحُفرة ويبدأ بدخولها بتروٍ وحذر، كان هناك سلمٌ رفيعٌ قد أوصده رمضان حتى يستطيعان دخول هذا الكهف، فكان كلًا منهما يساعد الآخر حتى وجدا أنفسهما داخل الحُفرة.

ابتسم ناصر بسمة مُنتصرة وشرع يولي صديقه نظرة عابرة أخرج معها مصباحه الضوئي ليفتحه ويبدأ التوٌغل داخل الكهف وخلفه صديقه الذي كانت تعلوه بوادر الحماس.

-إنت عارف المقبرة دي فين ؟

سأل رمضان باستفسارٍ آجابه ناصر بثقة وهو يتحرك نحو وجهة مُعينة:

-عيب عليك .... أنا دارس المقبرة دي أوضة أوضة

ما إن أنهى الحديث حتى لفحتهما نسمة هواء عليلة تبعها صوٌت أقدامٍ كانت تتحرك بسرعة أمامهما؛ تلفت رمضان حوٌله في ذعرٍ بحثًا عن صاحب هذه الخطوات لكنه لم يجد شيئًا، رغم أنه على يقينٍ بأنه رأى شيئًا يتحرك.

-هـ...هو في حد هنا ولا إيه ؟

قالها بنبرة مُتلجلجة جعلت ناصر يُطمئنه بثقة رغم نبضاته التي تسارعت:

-يا سطا مفيش حاجة .... خلينا نكمل ونجيب المصلحة

أومأ رمضان إيجابًا ليواصل السير متجاهلًا فؤاده الذي يشعر ببوادر الخطر وعقله الذي يحثه على التراجع، كانت خطواته مُترددة وهو يتحرك خلف ناصر حتى توٌقفت أقدامهما عِند مقبرة بعينها؛ شقت البسمة ثغر ناصر وهو يُمرر ضوء مصباحه داخل المقبرة ليشاهد جدرانها المنقوشة وذاك التابوت الذي يتوٌسط الحُجرة، ها قد عثر أخيرًا على المقبرة التي بحث عنها للعديد من الأيام، ها هو على شعرة من المجد والمكانة المرموقة، تبقى فقط، خطوة أخيرة.

تحرك رمضان داخل المقبرة بينما بقى ناصر أمام الباب يستخدم مصباحه لإضاءة الحُجرة، أحنى رمضان جذعه ليتحسس بيديه أسفل التابوت الجيري ثم يُمشط عينيه في كل بقعة من بقاع المقبرة بحثًا عن مبتغاهما، لم يجد شيئًا أسفل التابوت فقرر أن يبحث ببقعة أخرى لتصطدم قدمه بخنجرٍ قديمٍ يبدو وكأنه من ألاف السنين.

-رمضان .... لقيت حاجة ؟

انتفض على صوٌت ناصر وهو يُخبره هذه الكلمات ليُدثر الخنجر في جعبته بأسرع ما يُمكن، لا يعلم لماذا شعر أن عليه أن يحتفظ بذاك الخنجر ولا يُخبر ناصر عنه، فربما ينتفع به وحده.

-لا يا سطا لسة ملقتش

قالها ببعض الارتباك وهو يثب عن الأرض متجهًا نحو حافة المقبرة ليُطيل التحديق بأحد الأركان لعله لمح مجسمًا صغيرًا يتدثر بحواف المقبرة، نمت بسمة خافتة على

ثغره وهو يحني جذعه ليلتقط هذا التمثال الفرعوني الذي كان حجمة يعادل النصف ذراع، التفت بسرعة صوٌب ناصر ليرى الآخر هذا التمثال ويزداد فؤاده لوٌعة، وأخيرًا عثرا على كنزهما المفقود.

-اللهم ما صلي على النبي....

قالها ناصر بسعادة بالغة وهو يُصفق بكلتا يديه بينما كان الآخر يشاركه هذه السعادة ويتخيل تلك الأموال الباهظة التي سيجنيانها جراء بيعهما لهذا التمثال.

فتح رمضان حقيبته ليضع التمثال بداخله ثم يتجه صوٌب صديقه ليخرج كلاهما من تلك المقبرة، كان رمضان يسبقه ببضع خطواتٍ لشعوره بانقباضة في أوزاره جراء هذا المكان، لطالما أخبرته والدته أنه ولدٌ ممُيزٌ يستطيع التفرقة ما بين الأماكن الخطرة ذات الطاقة السلبية والأخرى الجيدة ذات الهدوء والسكينة، وهذا المكان يكاد يجعله يختنق لسببٍ لا يعرفه.

أما ناصر، فكان يتحرك خلفه وعيناه لا تفارقان جعبة صديقه، لا يعرف لماذا الآخر يتحرك بهذه السُرعة وكأنهما في سباق، ولا يعرف لماذا رفض أن يُعطيه التمثال وأصر على بقاءه بحقيبته، وكان شيطانه يُخبره أن يُنفذ خطته ولا يحيد عنها، يُخبره أن هذه الثروة تخصه هو ولا تخص صديقه، فهو الذي عانى حتى يعثر على تلك المقبرة، وهو الذي يعاني من ويلات الفقر والوحدة، على الأقل صديقه يقطن مع والديه في منزلٍ دافيءٍ لا يخلو من الهدوء والسكينة، أما هو، فلا يفعل شيئًا سوى التنقل من بقعة لأخرى وأحيانًا ما ينام بالشوارع عندما لا يجد مكانًا يأويه.

يتدفق شعور الغيرة بداخله وهو يراقب رمضان الذي يقترب من السلم عازمًا على الرحيل، تتغلغل نظرات الشر بين طياته وهو ينظر إلى صديقه ورفيق دربه الذي يملك كنزه هو!!

توٌقف ناصر عن السير ليضع يده في جعبته فاسحًا المجال لشيطانه بأن يواصل خطته التي أملاها عليه قبل مجيئهما إلى هنا، فقد أخبره أن يجلب معه هذه المدية، وأخبره أيضًا أن يستغل خبرة صديقه بالحفر حتى يحظى هو بهذا التمثال، فهو لن يستطيع دخول هذه المقبرة وحده، لكنه يستطيع امتلاك هذا التمثال والتمتع بثرواته كلها.

وضع رمضان قدمه على أول درجة بالسُلم بينما كان الآخر يقف خلفه يجابه ارتجافة يده وهو يقبض على المدية، يحاول أن يُنظم أنفاسه حتى لا تنقطع وتجبره على التراجع، يتخيل معاناته من الفقر والجوع والمرض وغيرها من الأزلام، يتخيل تلك الأموال الطائلة التي ستُصبح معه حالما يحصل على تلك الثروة، وما إن توٌقفت خيالاته، وجد عيناه تتقضان شرًا وأقدامه تتقدم ... وتقدم ... وتتقدم..

وكان الآخر يضع يديه على درجة السُلم الثانية حتى أحسٌ بآلة حادة تخترق جسده؛ برقت عيناه بصدمة وهو يستقبل تلك الطعنة الغادرة كابحًا أنينه وآهاته، تراخت يديه وبدأت أنفاسه تتقلص ليشعر أن جسده رخوٌا لن يساعده على مواصلة السير، يشعر بحرقة تعتلي ظهره ونيرانٌ تضمر في فؤاده، وكان الآخر يقف خلفه تتقاطر الدماء من أصابعه وهو يشاهد صديقه يلفظ أنفاسه الأخيرة، ومع ذلك لم يكتفي، فكان يُخرج مدٌيته المُدثرة بجسد صديقه ليطعنه بها مجددًا ... ومجددًا ومجددًا حتى تلطخت يداه بالدماء، آخر ما كان يراه هو نظرات رمضان المخذولة، وعيناه المفتوحتان في صدمة، ليس مصدومًا لأنه يلقى حتفه، بل مصدومًا من صديقه الذي ظنٌ أنه سيحميه من شرور العالم إلى أن تأكد أن الشرٌ كامنٌ بداخله هو.

تنفس ناصر الصُعداء وهو يبتعد عن جسد رمضان الذي ارتمى على الأرض مُضرجًا بدماءه، كان قد خطط لقتله داخل المُقبرة حتى لا يعثر أي أحدٍ على جثته وحتى لا يتم مقاضاته، هكذا سيحظى على مزيدٍ من الوقت ليتمكن من بيٌع التمثال والحصول على المال ثم السفر بعيدًا.

-معلش يا صاحبي ... بس الفقر وحش

قالها بتبريرٍ أزاح معه جُثة صديقه وبدأ يعبث بحقيبته حتى أمسك التمثال، وقتها تناسى خيانته ووضاعته وبدأ يبتسم مُجددًا ثم يُدثر التمثال بين خلجاته، كاد يضع يده على أول درجات السُلم عازمًا على الرحيل لولا هذا الصوٌت الحاني الذي اخترق أذنيه مرة واحدة..

-نـــاصر .... نـــاصر...

تصلب في موٌضعه حينما اخترقته هذه الكلمات الحانية، تسارعت نبضات قلبه في رهبة وهو يترك الدرج ويتلفت حوٌله نابسًا بتلجلج:

-مين ؟ .... مين إللي بينادي ؟

ظنٌ أن هناك شخصٌ آخرٌ داخل المقبرة يراقبه وربما يكيل له المكائد، الأمر الذي زاد من رهبته وجعله يتلفت صوٌب هذا الصوٌت لعله يتخلص من ذاك الغريب الذي لا يعرف حتى من أين أتى!!

-ناصر ... نـــاصر...

كان الصوٌت ناعمًا حانيًا بدد القليل من رهبته واستبدلها بشكٍ وحيرة، فمن هي صاحبة هذا الصوٌت، وكيف تعرفه ؟

-مـ...مين إللي بينادي ؟

كادت عيناه تُذرفان الدموع وهو يطالع الصوٌت وقد أدرك الآن أن هذا لم يكن مجردٌ صوٌتًا عابرًا، بل هو صوٌت يعرفه جيدًا، نعم ... صوٌت والدته ... المتوٌفاة!!

تضاربت نبضات قلبه في هلع وبدأت الدموع تترقرق من عينيه، نعم، هذا هو صوٌتها، وهكذا كانت تناديه وهو صغيرٌ حتى يتناول فطوره، هكذا كان صوٌتها الحاني قبل أن يسلبها الموٌت.

-ناصر ... تعالى يا ناصر...

تهاوت حصونه وبدأت دمعاته تنحدر، يتحرك خلف الصوٌت كالمجذوب وفؤاده يُخبره أنه قد يراها مُجددًا، فهو يشتاق لها، يشتاق لأحضانها وربتاتها الحانية، يشتاق لابتسامتها الرقيقة وقلبها العطوف، ولا يُصدق أنها تركته يصارع الحياة وحده، بقي يتحرك كالمُتغيٌب خلف هذا الصوٌت حتى وجد ظلها يتدثر بأحد الأركان، لم تكن ملامحها واضحة بسبب الظلام لكنه شعر بيديها المرفوعتان وكأنها تحمل شيئًا ما، شعر بوجهها وهو يرتفع بضع أمتارٍ لتواصل ندائها بطريقتها الحانية:

-ناصر يا حبيبي ..... تعالى يا قلب أمك...

تصاعدت أنفاسه وانهمرت دموعه، يتحرك بخطواتٍ مُرتجفة صوٌب طيفها يُريد أن يرتمي بين أحضانها، لا يُصدق أنها هنا، ولا يُصدق أنه يُستمع إليها، تناسى أنها

انتقلت إلى بارئها وواصل السير باتجاهها ولسانه لا ينطق سوى بتلك الكلمات المبحوحة غير المُصدقة:

-مـ...ماما!!

-تعالى يا حبيبي

هكذا ردت عليه ليُسرع من خطواته صوٌبها وتتسارع نبضاته أكثر، ينادي على والدته وهو يتحرك صوٌب طيفها متجاهلًا وجوده داخل هذا الكهف المُظلم، فقط يتحرك نحو طيفها ... يتحرك ويتحرك حتى....

تلاشت !! هكذا وبكل بساطة، تلاشى طيفها من أمامه، وبقي هو في تلك البقعة يحُدق بالجدار أمامه وعقله يؤكد له أكثر من مرة أن هذا لم يكن وهمًا، فهو قد رآها بالفعل، واستمع إليها أيضًا، تذكر وقتها صديقه رمضان الذي كان يُخبره أنه استمع إلى حفيفٍ أقدام وهو أخبره أن هذه مجرد أوهام، وأنه لا يوجد أحدٌ غيرهما، تهدلت أكتافه بخيبة أملٍ كفكف معها دمعاته مُتذكرًا صديقه الذي خانه ووالدته التي كان متأكدًا من رؤيتها، لكنها لم تكن سوى مُجرد أوهام.

حاول استعادة أنفاسه والعودة إلى السلم حتى يرحل من ذاك الكهف قبل أن يفقد صوابه، وما كاد يتراجع خطوة حتى وجد جسده يصطدم بشيءٍ صلبٍ لا يعرف من أين أتى؛ اندفع جسده بضع أمتارٍ للأمام إثر هذا الاصطدام، فتح مصباحه الضوئي بسرعة ليرى هذا الشيء الذي اصطدم به، وما إن فتح المصباح حتى تسارعت نبضاته أكثر، فالضوء المُنبثق من المصباح جعله يستطيع رؤية هذا المجسم الواثب خلفه، والذي لم يكن سوى ... ظلًا بشريًا!!

ازدرد ريقه بهلعٍ، تقلصت أنفاسه لدرجة جعلته يعتقد أنها ستتوٌقف، فمن هذا الذي يقف خلفه ؟ وما هذا الخنجر الذي ينعكس ظله على الأرض والذي يبدو وكأن البشري يرفعه لأعلى حتى....

توٌقفت أفكاره مع زيادة نبضاته وتقاطر حبات العرق على جبينه، تصاعدت أنفاسه وسرت البرودة في سائر أنحاء جسده، حاول أن يتماسك جيدًا وهو يقبض على المصباح ويستدير للوراء عازمًا على رؤية هذا الذي يُريد قتله، والذي لم يكن سوى .... رمضان!!

التصق جسده بالجدار في رُعب ما إن باغتته نظرات رمضان المميتة، فكانت عيناه غائرتان يشع منهما السوٌاد، جسده لا يزال مُلطخًا بالدماء وابتسامته شيطانية أظهرت أسنانه الحمراء والدماء الذي يسيل من جوفه، أطلق ناصر شهقة مُرتعبة وهو يشاهد صديقه_أو روحه_ وهو يبتسم أمامه تلك الابتسامة الُمرعبة والتي اجتمعت مع يده التي كانت تحمل خنجرًا عتيقًا لا يعرف من أين أتى به صديقه، لكنه يعرف أن هذه نهايته.

انحدرت الدموع على وجنتيه وزاد جسده ارتعادًا وهو يلتصق أكثر بالجدار ثم يجوب بعينيه في كلٍ مكانٍ بحثًا عن أي مخرجٍ من ذاك المكان، لكنه يكتشف أنه حُوصر بإحدى الزوايا، لذلك بدأ يتوٌسل ويبكي كلما اقترب رمضان نحوه ومعه هذا الخنجر.

أحس بحوافر تنقر على أقدامه مع صوٌت هسهسة تُصدر بجوار أذنه، قبض جيدًا على المصباح رغم ارتجافة بدنه ووجهه صوٌب الأسفل ليفهم ماهية هذه الحوافر مما زاد شعوره بالهلع، فقد كان هناك جمعٌ من الجرذان يتحركون نحوه كما يتحرك الجيش لقتل أعدائهم في معركة ضارية.

-لا ... لا لا لا...

بقي يصرخ بتلك الكلمات وهو يحاول ركل الجُرذان التي تتكاثر عليه مما جعله يُلقي بمصباحه بسبب حركاته الهيستيرية، يصرخ بأعلى ما لديه وهو يحاول التملص من هذه الجرذان بلا فائدة، حيث كانت تنقض عليه وتلتهم أحراشه بلا رحمة، وكان هو لا يتوٌقف عن الصراخ والبكاء ثم يتحوٌل بكاءه وصراخه إلى أنينٍ وأهات ودماءٌ في كل مكان، وكان رمضان يقف أمامه بعينيه السوٌداء الغائرتين وابتسامته الشيطانية التي ينسل منها الدماء، يشاهد صديقه الذي تلتهمه الفئران وهو يقبض على ذاك الخنجر العتيق!!

الفصل الأول (في لمح البصر)

العين ترى المظالم، والأذن تسمع الأنين، والفؤاد يستشعر المخاطر، أما العقل، فهو من يضع جميع هذه المؤشرات، في رُكن الأوهام...

صوٌت أنفاسها المتعالية يخترق عبير السماء، صافراتٌ تنطلق من أذنها تُعلن عن ناقوس الخطر، هواءٌ قليلٌ يختلط بالأدخنة السوداء وأصوات الصراخ، عينان صغيرتان مُشتعلتان بوميض من النيران الهاجرة، وبين هذا كله، هناك صوٌت يناديها، يناديها ببحة مكلومة وصرخاتٍ مُرتعدة.

-فــرح ... فرح...

أطلقت شهقة مدوية من جوٌفها وهي تثب من غفلتها إثر صوٌت والدتها التي كانت تناديها لتُخبرها أنها أعدت مائدة الفطور وتنتظرها حتى تتناول الطعام قبل ذهابها إلى الجامعة، حاولت فرح أن تُهديء من نبضاتها الثائرة عن طريق وضعها ليدها على صدرها ثم تفرك عينيها لإزاحة الرمق عنهما، فها هو يومٌ جديدٌ بحياتها الروتينية، ها هو يومٌ جديدٌ تستيقظ فيه على ذاك الكابوس الذي يؤرق منامها كما يؤرق حياتها.

أزاحت الشرشف عن جسدها لتترجل عن الفراش ترتدي نعلها الأسود السميك وتتجه صوٌب المرحاض، مرمغت وجهها بالمياه أكثر من مرة وبقيت ترمق ملامحها المُجهدة أمام المرآة، لا تريد أن تُخبر عائلتها بهذه الكوابيس التي لا تفارقها، لا تريدهم أن يسخروا من معاناتها ويخبرونها أنها مُجرد أوهامٍ ليس إلا.

تنهدت تنهيدة عميقة قبل أن تخرج من المرحاض وتتجه إلى حُجرتها حتى تُبدل منامتها إلى سروالٍ من القُطن الفضفاض مع سترة مُريحة ذات لونٍ ورديٍ يناسب خصلاتها المموٌجة التي عقصتها لأعلى لتتناسب مع تلك الأجواء الجامعية.

خرجت من الحُجرة لتتقابل عينيها مع عيني مؤيد صاحب الأربع والعشرين ربيعًا، يرتدي قميصه استعدادًا للذهاب إلى عمله، فهو محاسبٌ بأحد البنوك ويتوٌلى رعاية أسرته بعد وفاة رب المنزل.

-صباح الخير

قالها ببسمة هادئة لم تُعيرها انتباهًا بسبب مزاجها العكِر، اكتفت فقط بإيماءة هادئة ثم واصلت السير حتى جلست على مائدة الطعام، بينما أردف مؤيد بتهكم:

-طب رُدي طيب .... يا بت إنتِ قاعدة مع كُفار

صفعها بخفة على رقبتها من الخلف لتنتبه لوجوده، لكن صفعته الخافتة زادتها ضجرًا وجعلتها تقول بعد أن تأوهت من صفعته:

-بطل غلاسة

ابتسم مؤيد بمشاكسة وبقي يعبث معها وهو يُعد الشطائر ويتناولها بنهمٍ قبل أن تتدخل والدتهما يسرية متسائلة:

-هترجعي إمتى من الجامعة ؟

أمسكت فرح قطعة الجُبن لتُدثرها في الخُبز وهي ترد على والدتها:

-عندي محاضرتين .... وهرجع مع لميس

أومأت والدتها إيجابًا وأخذت تملي عليها بعض النصائح الحياتية لتنتبه على نفسها، ثم تسألها عن لميس وعن أحوالها وتُجيبها فرح إجاباتٍ مُختصرة لعدم رغبتها بإطالة الحديث، أو لأنها لا تعرف أغلب الإجابات.

بعد فترة من الحديث، أنهت فرح فطورها لتترك المائدة وتنتشل حقيبتها الصغيرة عازمة على الرحيل قبل أن تفوتها المحاضرة، تبعها مؤيد ليقوم بتوٌصيلها بينما كانت والدتهما تودٌعهما وتدعو لهما بصدرٍ رحب.

أمسكت فرح هاتفها وبدأت تراسل صديقتها التي لا تعرف أين هي الآن....

أصابع نحيلة مُرتجفة كانت تطرق على الطاولة لعلها تحاول ازاحة الارتباك عن صاحبة الأصابع ذات الملامح العابسة والقلب المُضطرب، تقف لميس داخل حُجرة الطعام بعينين جاحظتين مُحي عنهما آثار النوٌم، صوٌت الصفير كان ينطلق خلف

أذنها ويرتفع وهي تتجاهله وتبقى في حالة شرودها وغيابها، تريد أن تنفجر، تريد أن تبكي، تريد أن تتخلص من هذه الحياة ولا تعرف كيف، فما عليها سوى التُحمل.

أفاقت من شرودها بانتفاضة هاجرة أطلقتها بجسدها حينما انتبهت إلى صافرة الإبريق الذي بدأ يبصق المياه الساخنة خارجه مما أصاب أصابعها النحيلة، كتمت لميس ألمها وهي تلعق إصبعها المُحترق ثم تُحركه في الهواء لعل حريقه يضمر، أمسكت بعدها رُقعة من القماش لتضعها على الإبريق استعدادًا لسكب المياه الساخنة داخل أقداح الشاي، كان هذا قبل أن يتصلب جسدها مرة واحدة إثر هذه الخطوات التي وطأت بالقُرب منها، مع هذه الابتسامة اللزجة الحقيرة التي تجعل فؤادها يتضارب في هوادة.

-خلصتي الشاي ؟

كانت عيناه تُمشطان جسدها النحيل ذو المعاني الأنثوية، ورغم أنها ترتدي ثيابًا فضفاضة وتضع الوشاح على شعرها، إلى أنها لم تستطع الهرب من هذه النظرات الحقيرة وهذه الخطوات التي يتقدمها زوج عمتها نحوها والتي تجعلها تزداد ارتباكًا وهي تسكب المياه الساخنة متفوِّهة:

-أ..أه ...قـ..قربت

تسارعت نبضات قلبها أكثر وكادت الدموع تُذرف من عينيها، فهذا الحقير يقترب نحوها ويُحرك يديه ليضعها على خصرها دون إرادتها، ولا تستطيع هي أن تصرخ أو تُخبر عمتها، فهي لا تُريد تدمير حياتها، تعرف أن عمتها لا تمتلك منزلًا آخرًا غير هذا ولن تستطيع أن تتركها تجوب الشوارع كالمشردين بسببها.

وهي كذلك لا تملك منزلًا آخرًا، فمُنذ وفاة والديها بحادثة القطار وهي في ذاك المنزل الأشبه بالجحيم، تتحمل نظرات زوج عمتها ولمساته الحقيرة التي تتمادى كثيرًا، فقط لأنها تريد أن تحيا.

حاولت التملص من لمسات رضوان_زوج عمتها_لتبتعد بضع أمتارٍ عنه ولا ينفك هو عن تركها حتى كادت الدموع تنهمر من عينيها، كان هذا قبل أن ينقذها صوُت عمتها التي نادت زوجها من البهو ليُساعدها في أمرٍ ما.

أطلقت لميس زفرة مرتاحة من جوٍّفها وهي تراقب رضوان ينتفض كالممسوس ويترك حُجرة الطعام قبل أن تراه زوٌجته، فقط يرميها بنظراتٍ حقيرة وعيناه تُخبرانها أنه لم ينتهي بعد.

وضعت لميس يدها على صدرها لتحاول التهدئة من نبضاتها المُضطربة ثم تستنشق الكثير من الهواء وتُطلقه لعلها تستطيع المحافظة على ثباتها أمام عمتها، صحيحٌ أن ملامحها جذابة خاصة عيناها الواسعتان العسليتان وأنفها المتناسق مع جسدها الممشوق الذي يجعلك تعتقد أنها عارضة أزياء، إلا أنها ترى هذا الجمال نقمة تؤرق مضجعها، كم وٌدت لو كانت قبيحة لا يقدر أحدهم على رؤية ملامحها، على الأقل كانت ستأمن نظرات رضوان الحقيرة التي تتشابه مع نظرات المزيد من الوحوش البشرية التي تقابلهم يوميًا.

صدح هاتفها وهو بداخل جعبتها ليُخرجها من شرودها ويجعلها ترمق من يتصل بها، وما كانت هذه سوى فرح، صديقتها المُقربة منذ الِصغر، والشخص الوحيد الذي يجعلها تتحمل هذه الحياة وتعتقد أنها مرغوبة، رمقت هاتفها لأقل من ثانية قبل أن تضعه مجددًا داخل جعبتها وتنطلق إلى الخارج عازمة على الذهاب إلى محاضرتها....

انتهت أولى محاضراتهم بتلك الجامعة الحكومية العريقة وبكلية الحاسبات والمعلومات، لم تكن هذه الكلية من أحلامها يومًا، فلطالما آرادت الالتحاق بكلية الهندسة لكن علامتها لم تؤهلها لذلك، فارتضت بنصيبها الذي أدخلها هذه الكُلية.

تتغنج فرح في مشيتها وهي تتحرك بين ممرات الجامعة الفسيحة وعلى وجهها ابتسامة مُتسعة، ها هي ستراه أخيرًا، فهي تنتظر انتهاء محاضراتها حتى تراه وتتحدث معه.

-عملت إيه في الامتحان ؟

سألت فرح بنبرة مهتمة ليظهر الارتباك على وجه معاذ الذي كان يتفقد هاتفه دون اكتراثٍ لوجودها، فهو قد أخبرها ليلة أمسٍ أنه مشغولٌ بالمذاكرة من أجل اختبار اليوم حتى لا يتحدث معها، فلم يكن هناك أي اختبارات من الأساس.

-إيه !.... أه ... الحمد لله

حاول أن يخفي ارتباكه بتلك الكلمات المُختصرة ونظراته التي وجهها مُجددًا صوٌب الهاتف، وكانت فرح لا تنتبه لتجاهله لها وتواصل السير بجواره وعلى وجهها تلك البسمة الهادئة الشغوفة، فوجودها مع معاذ_أوسم الطلاب بالجامعة_هو بمثابة وِسامُ شرفٍ لها، حتى ولو كان يعاملها بهذه اللامبالاة.

-هنعمل إيه انهاردة ؟

-هنعمل إيه في إيه ؟

هكذا آجابها وهو لا يزال يُحدق بهاتفه لتتوٌقف فرح عن السير وقد بدأت كرامتها تطفو على اليابسة، صكت على أنيابها وهي ترمقه بملامح مُقتضبة نزعت معها هاتفه وهي تقول:

-ركز معايا وأنا بتكلم

تنهد معاذ تنهيدة مُضجرة استنشق معها القليل من الهواء وأخرجه من جوٌفه بسأم ليجاريها بالحديث حتى تُعيد له هاتفه:

-في إيه يا فرح ؟ .... بقولك عندي امتحانات .... مينفعش نخرج اليومين دول .... استني لما أخلص

وضعت يديها على خصرها وهي تسأل بتهكم:

-وهتخلص امتى بقى ان شاء الله ؟

-كمان اسبوعين كدة

آجابها بثقة لأنه أعد هذه الإجابة، فهو يُريدها أن تتوٌقف عن الثرثرة وتتركه وشأنه، هو حتى لا يعرف كيف انجذب لهذه المُزعجة مُنذ البداية، ولا يُصدق أنها متيقنة بأنه سيتزوٌجها وسيطلب يدها حالما تنتهي الفترة الجامعية، فهو لن يفعل ذلك أبدًا.

مدٌ معاذ يده ليلتقط منها هاتفه وتقابله هي بملامح مُضجرة وهي تمدٌ نحوه الهاتف وتستأذن لملاقاة صديقتها، فما إن رحلت حتى أطلق معاذ زفرة مُرتاحة من جوٌفه وكأنه أزاح حِملًا ثقيلًا كان يجثم على صدره، فما إن تأكد من رحيلها حتى فتح

هاتفه مُجددًا ليواصل ما كان يفعله، يواصل مشاهدة صوُر هذه الفاتنة التي يهيم بها عشقًا ولا تعرف هي شيئًا عن قلبه المكلوم، يشاهد صوُرها يوميًا لعلها تضحى من نصيبه ويتخلص من هذه العلكة التي علق معها، وما كانت هذه الفاتنة سوى .... لميس!!

_____

-بتعملي إيه من غيري ؟

سألت فرح بمرحٍ وهي تقترب من لميس التي كانت تجلس على مقعدٍ خشبي ومعها هاتفها تشاهد من خلاله أحد الأفلام لعلها تتحدى الملل حالما تأتي صديقتها، فدائمًا ما ينتظران بعضيهما حتى يستقلا الحافلة سويًا ويعودان إلى المنزل، فكلاهما يقطنان بذات الحي البسيط.

-بتفرج على فيلم ... بس جامد أوي

قالتها لميس بلهفة وهي تُحدق بشاشة هاتفها الذي يعرض أحد هذه الأفلام، الأمر الذي غلغل الفضول بداخل فرح وجعلها تسأل:

-فيلم إيه ؟

-فيلم كدة بيتكلم عن صحاب اتحبسوا جوة كهف .... ومن كُتر جوٌعهم، كانو بيختارو واحد منهم عشان يدبحوه وياكلوه

علُت نظرات الاشمئزاز وجه فرح وهي تتعجب من مشاهدة لميس لتلك الأفلام الدموية، وكانت الأخرى لا تعير لنظراتها انتباهًا وتواصل مشاهدة الفيلم باستمتاعٍ جعل فرح ترمقها بريبة علقت معها:

-هو ده إللي فيلم جامد!!

تنهدت بعد حديثها الذي غيٌرت مجراه بكلماتها المُستذكرة:

-ما علينا .... فاكرة يا بت الجنينة إللي كُنا بنروحها زمان واحنا عيال ؟

همهمت لميس باستذكار وعقلها يستحضر تلك الأيام الهادئة التي كانت فيهم طفلة صغيرة تركض بتلك الحديقة الواسعة خلف فرح التي كانت بنفس عُمرها تشاركها

جميع الأمور كما تفعل دائمًا، فصداقتهما لم تكن صداقة عابرة جامعية، بل كانت أكثر من ذلك، فلميس كانت معها بنفس المدرسة قبل أن تنتقل إلى منزل عمتها الذي يقترب من منزل فرح ويزداد الرابط بينهما أكثر حينما يُقررا الالتحاق بنفس الكُلية رغم أن لميس حصلت على مجموعٍ مُرتفعٍ يؤهلها لدخول كلية الهندسة.

-أيوة طبعًا فاكراها .... و دي أيام تتنسي ؟

أدلت لميس هذه الكلمات بابتسامة هادئة قابلتها الأخرى بابتسامة تماثلها وكلمات مترجية:

-طب ما تيجي نروحها يوم ونسترجع الذكريات ؟....

أسدلت السماء ستارها وسكنت الأجواء في هذه الليلة العصيبة، تجلس فرح على فراشها والهاتف يرتكن بين أناملها تعبث به لعدم رغبتها بالنوم، فهي لا تُريد لهذه الكوابيس أن تؤرق مضجعها مرة أخرى، لذلك تتجنب النوم قدر الإمكان حتى تجده مُنتصرًا عليها.

ارتسمت بسمة على شتفيها ما إن قابلها منشور إحدى صديقاتها التي سخرت من خلالهم على الأنظمة الجامعية المُجحفة وعلى أساتذتهم المختلون عقليًا، ضغطت على صاحبة هذا المنشور لتجدها إحدى صديقاتها الجامعيين لكنها بكلية أخرى، وما آثار سعادتها هو حالتها النشطة التي ستسمح لها بالحديث معها، فهي تعرف أن لميس تغط في سباتٍ عميقٍ الآن.

" -ازيك عاملة إيه ؟"

هكذا أرسلت إليها على الخاص لتنتظر برهة من الوقت حتى وجدت الإجابة تأتيها مباشرة:

" -أهلًا بإللي ناسي أحبابه .... يعني أنا اقربك للواد عشان تبعدي عننا ؟"

كانت كلماتها تحمل لمحة من العِتاب الذي لاحظته فرح، فهي قد تعرفت على هذه الفتاة فقط لتساعدها على التقرب من مُعاذ والذي كان معها بنفس الكُلية وبنفس المرحلة الدراسية أيضًا.

" -والله ما بعدت ولا حاجة ... أنا بس مشغولة شوية"

انتظرت برهة من الوقت حتى أتتها رسالة نصية:

" -ماشي يا ستي سماح المرادي .... هنتقابل إمتى بقى ؟"

نمت بسمة مرحة على ثغر فرح وهي تنقر على هاتفها بلهفة وحنين:

" -أي وقت .... بس لما تخلصو امتحانات الأول"

بعد فترة من السكون وجدت صديقتها تُجيبها برموزٍ ضاحكة تبعتها بإجابة:

" -امتحانات إيه يا بنتي .... إحنا خلصناها الأسبوع إللي فات .... هو معاذ مقالكيش ولا إيه ؟"

تلاشت بسمة فرح مرة واحدة ليحل محلها بوادر الصدمة وعدم التصديق، فمعاذ هو الذي أخبرها ألا تتصل به حتى يستطيع المذاكرة للاختبارات!!

ازداد ارتباكها مرة واحدة لتتصاعد ضربات فؤادها الذي شعرت وكأنه يتحطم، لا تعرف لماذا يكذب عليها، ولماذا لا يوليها انتباهًا هذه الأيام ؟ بل ومنذ فترة وجيزة.

أمسكت هاتفها للمرة الأخيرة لعلها تُسكن القليل من نبضاتها وتفهم حقيقة الأمر، قررت أن تنهي حوارها القصير مع صديقتها بكلماتٍ كاذبة:

" -لأ قالي بس أنا شكلي نسيت" ...

تحججت بعدها وقالت أنها ستذهب إلى النوم لتُنهي نقاشهما بسرعة وتثب عن الفراش تحاول جمع ما تبقى من ثباتها، ارتدت سُترتها وتحركت بخطواتٍ هادئة خارج المنزل حتى لا يستمع إليها شقيقها أو والدتها، فبالطبع لن يسمحا لها بترك المنزل وقد شارفت الساعة على الواحدة بعد مُنتصف الليل.

انتشلت مفتاح السيارة الخاصة بشقيقها تحمد ربها أنه علمها القيادة مُنذ فترة وجيزة، فهي لن تستطيع المحافظة على ثباتها دون الذهاب إلى منزله ومعرفة الحقيقة....

صوّت هدير الرياح وهي تضرب النوافذ تزيدها لوّعة وارتباكًا، أنفاسها تتعالى وتهبط وهي مستلقية على فراشها لا تستطيع النوم، فكيف تنام وهي محاطة بالخطر، فكلما سكن المنزل زاد قلبها هياجًا.

تستمع إلى خطواتٍ قريبة يكاد صوّتها يُخترق أذنيها، فمع كل خطوة تقترب نحو الحُجرة كان قلبها يتحطم مئة قطعة، حركت يدها نحو الوسادة لتقبض على إحدى السكاكين المُتدثرة أسفلها، نعم، فهي تحتفظ بالسكين أسفل وسادتها حتى لا يأتي زوج عمتها وينقض عليها كالأسد وهو ينقض على فريسته، لن تسمح له بانتهاك عرضها مجددًا، ليس لأنها فتاةٌ وحيدة يحق له العبث بجسدها وقتما يشاء.

قبضت أكثر على السكين ثم حركت يدها الأخرى لتُعدل من وشاح شعرها الذي ترتديه حتى وهي نائمة، تُفكر يوميًا بالهرب من هذا المنزل لكن أفكارها تدور في حلقة مُفرغة، ليس لها معارف حتى تذهب إليهم، ولن تستطيع الذهاب إلى فرح والبقاء في منزلها، فهي أيضًا لديها شقيق، رغم أنها تعلم أن شقيق فرح لا يعادل ذرة من زوج عمتها الحقير.

انتفض جسدها مرة واحدة حينما أحست بأنامله تتلمس كتفها، أطلقت شهقة مذعورة وهي تثب عن الفراش قابضة على السكين تحاول مجابهة فؤادها الذي يخفق بلا هوادة، كانت أنفاسها تتصاعد وهي تقف أمام الفراش شاهرة السكين أمامها نحو رضوان الذي تعجب من جرأتها لكنه لم يمحي نظراته الحقيرة.

-لو قربت ناحيتي هقتلك

هكذا صرخت لميس بنبرة مُهددة ظنّت أنها ستجعله يستسلم ويرحل من حجرتها، لكنها لم تجد سوى نظرات السُخرية والاستخفاف وهما ينطلقان من عيني رضوان الذي بدأ يدّعي الاستسلام أمامها ليُخبرها كم أنها فتاةٌ ضعيفة.

-شش ...إهدى، أنا بعيد أهو ومعملتش حاجة .... بعدين أنا كُنت جاي اغطيكي

ادٌعى البراءة وهو يتحدث ويقترب نحوها بركبتيه التي كانت تتحركان فوق الفراش وتزداد هي ارتجافًا وهي تتقهقر للوراء شاهرة السكين أمامه تحاول الحفاظ على ثباتها قدر الإمكان.

-إبـــعد عني...

صرخت به مُجددًا حتى يتوٌقف عن التقدم نحوها أو ربما تسمعها عمتها وتأتي لنجدتها كما تفعل دائمًا، كم تتمنى أن ترى عمتها ما يفعله زوجها الحقير، لكنها لا تأتي، وهي لا تعرف لماذا، وربما ستعرف منه الآن.

-مهما صرختي محدش هييجي .... عمتِك في سابع نومة .... يعني مفيش غيري أنا وإنتِ ... وبس

اتكأ على آخر كلماته لتزداد خوٌفًا وتتأكد أنه بالطبع وضع شيئًا لعمتها حتى تغرق في هذا النوم العميق، وعندما تأكدت من هذه الخاطرة؛ ارتفعت نبضات فؤادها الذي ظنٌت أنه سيتوٌقف عن العمل، تجده يقترب نحوها يخلع سُترته العُلوية ليبقى أمامها بسُترته الداخلية، قبضت أكثر على السكين وهي تتراجع حتى اصطدم جسدها بالحائط وما زال هذا الوحش البشري يقترب نحوها، تتقاطر حبات العرق على جبهتها والدموع تنسل من عينيها بقهرٍ وقلة حيلة، تجوب بعينيها في أنحاء الحُجرة بحثًا عن أي ثغرة للهرب لكنها لا تجد سوى طريقة واحدة فقط.

انطلق صوٌت أنينه وزمجرته عندما باغتته بحركة مفاجئة مررت بهم سكينها بكتفه لتقوم بجرحه جرحًا سطحيًا، فهي لن تستطيع أن تقتله وتتخلص من شروره، ولا تُريد فعل ذلك، هي ليست سوى فتاةٌ هشة يقسم العالم على تحطيمها.

انقبضت أوزارها وهي تحاول الهرولة بعد أن باغتته بتلك الضربة ووجدت الدماء تنسل من كتفه وعيناه تُطلقان وابلًا من النيران الهاجرة:

-بتضربيني يا زبالة....

أطلقت لميس صرخة مستغيثة حينما وجدته يقبض على حجابها لينتزعه قِسرًا ثم يمسك خُصلات شعرها بيده السليمة، ألقت لميس السكين المُلطخ بالدماء على الأرض وهي لا تتوٌقف عن التأوه إثر يده الثقيلة التي تكاد تنتزع خصلاتها من

جزوره، بينما كان الآخر يتجاهل جرحه وهو يرميها بتلك النظرات المتوُعدة والسباب الذي لا يتوُقف عن الانطلاق من جوُفه، بدأ يصفعها العديد من الصفعات حتى بدأت تنسل دموعها وهي تتوُسله أن يتركها وشأنها، لكنه لم يفعل، ولن يفعل أبدًا، ألقاها على الأرض وبدأ يركلها في معدتها وهو يتوُعدها شر وُعيد، وكانت هي تصرخ وتتلوُى على الأرض بخصلات شعرها الثائرة والدماء التي تنسل من شفتيها مع تلك الكدمات التي سببتها صفعاته.

بقيت تبكي بقهرٍ وهي تستقبل لكماته التي هشمت عظامها، حتى وجدته يتوُقف مرة واحدة، توُقف عن ركلها وبقي يرمقها بنظراتٍ نارية مُتوُعدة، حاولت التقاط أنفاسها وهي تعتدل عن الأرض بأعينٍ مُنتفخة من البكاء وفوهٍ لا يتوُقف عن التوُسل والرجاء، لا تُريده أن يلتهم جسدها مجددًا، حتى ولو فقدت كرامتها، لكن هذا الوحش البشري الذي يقف أمامها، قد أقسم على جعلها تفقد الاثنين، كرامتها ... وشرفها.

-إنتِ فاكرة إن واحدة يتيمة زيِك هتقدر عليا .... أنا بقى هوريكي إزاي تمدي إيديك على رضوان الضاحي

قالها وهو يخلع ثيابه استعدادًا لالتهام ضحيته....!!

أوقفت السيارة جانبًا لتترجل منها بحركاتٍ سريعة مُرتبكة، كانت تعرف أين هو منزله، فهو قد أخبرها أنه يقطن بأحد الأحياء الراقية بالزمالك، وقد أخذها في جوُلة في منزله ذات مرة رغم اعتراضها ومعرفتها جيدًا أن شقيقها لن يوافق على شيءٍ كهذا، فهذا الذي تعلق فؤادها به، جعلها تتخلى عن مبادئها وتسير خلفه كمسلوبة الإرادة.

نظراتها مُشتعلة غاضبة وهي تقف أمام منزله تضغط على الجرس أكثر من مرة، قدماها تضربان على الأرض بغضبٍ عارمٍ لا تعرف كيف ستبدأ معه الحديث، أتخبره أنها كشفت أكاذبيه ؟ أتعاتبه على تجاهله الدائم لها وعدم حديثه معها إلا عندما يتعرض لضائقة ؟ كاد عقلها يقتلها من كل هذه الأفكار، حتى أنها فكرت بالتراجع حتى لا تنتهي هذه المقابلة بما لا تحمد عقباه، فهي لن تستطيع أن تتحمل ابتعاده عنها، لا تقدر على التنفس بدونه، تعشقه لدرجة قد تجعلها تتخلُى عن أغلى

ما تملك من أجل فقط أن يبقى معها، لكن كرامتها اللعينة دفعت جسدها للمجيء إلى هنا ومحاولة فهم سبب تغيره بالفترة الأخيرة.

بعد فترة من دق الجرس، وجدت باب المُنزل يُفتح ليطل منه معاذ بمنامته البسيطة المتناسقة مع شعره البُني الأملس الثائر وجسده الرياضي وعيناه السوداوان الجذابتان، كان يرمقها بنظراتٍ حائرة يتعجب مجيئها في هذا الوقت المتأخر، ويتعجب نظراتها الجحيمية أيضًا:

-إيه ده !! .... إنتِ إزاي تيجي البيت في الوقت ده ؟

حمُلت كلماته بعض الغضب حتى لا يراها سكان البناية ويبدأو بإطلاق الشائعات حوُله وربما تصل هذه الشائعات إلى والديه، وكانت هي تتجاهل غضبه لتقول بنبرة ثائرة:

-إيه .... لسة بتذاكر عشان الامتحان ؟

قالتها بطريقة ساخرة جعلته يتأكد أنها كشفت أكاذبيه، فقد كان يُمسد على رقبته من الخلف ويُبعد نظراته عنها حتى لا تُلاحظ ارتباكه، لكنه لا يعلم أنها لاحظته مُنذ فترة طويلة.

-ليه كدبت وقولت إن عندك امتحانات وإنت مخلص بقالك إسبوع ؟ .... وليه مُش بترد عليا ومش عايز تكلمني ؟

بصقت أسئلتها مرة واحدة لعلها ترضي فضولها وتحجم شكوكها، لا تريد أن تبقى علاقتهما مُعلقة بهذه الطريقة، لا تزال تنتظره حتى يأتي لخُطبتها، لكنها لا تجد منه سوى الصمت، الصمت الذي جعلها تثور أكثر وهي تصرخ بوجهه:

-ما تـــرد عليا

-عشان أنا مش عايز اكمل

هكذا رد عليها بطريقة انفجارية وكأنه قنبلة قد آن أوانها لتفجير مدينة بأكملها، أنفاسه تتصاعد وتهبط وهو يُعرب عمَ يجيش بصدره، لا يتحمل المزيد من ثرثرتها، لا يتحمل التصاقها به كالعلكة وهو يهيم بفتاةٍ أخرى، وكانت هي في حالة من

الصدمة عقب كلماته، صدمة جعلت أطرافها تتوُقف عن الحركة، وقلبها يتسارع ويخبرها ألا تُصدق هذا الحديث، هو فقط يقوله لأنه غاضبٌ ليس إلا، نعم، سيتراجع ويعتذر ويُخبرها أنه يُحبها ولن يستطيع أن يتحمل ابتعادها عنه، لكنه مع الأسف، لم يُحقق آمالها هذه المرة، فقد كان يتحدث أمامها باندفاعٍ وكلماتٍ نابعة من قلبه كانت أشبه بالسهام التي تنحر عُنقها وتخترق سائر أنحاء جسدها.

-أيوة مش عايز أكمل .... زهقت

ارتجفت شفتيها وبدأت دموعها تترقرق على وجنتيها وهي تقول بعدم تصديق:

-يـ...يعني إيه زهقت ؟ ... يعني ... يعني إنت ... مبقتش تحبني

خرجت كلماتها بثقلٍ وارتجافٍ جعله يكاد يفقد صوٌابه وهو يُعرب عمَ بداخله، يريدها أن تُحرره من قيودها بأية طريقة، هو لم يعد يتحملها ولا يهمه أن يُحطم فؤادها، فهي التي أتت إليه بقدميه وهي التي آرادت معرفة الحقيقة التي كان يُمهد لها حتى لا يُحطم فؤادها:

-أيوة ... زهقت منك ومن الحِصار إللي عملاهولي طول الوقت .... افهمي بقى وسيبيني في حالي

كاد يُغلق الباب بوجهها بعد هذه الكلمات القاسية التي زادت من دموعها وجعلت فؤادها يتسارع أكثر، لا زال فؤادها يُكذب كلماته ويُخبرها أنها فتاةٌ مرغوبة يُحبها الجميع، بدأ عقلها يستعرض أمامها لحظاتهما السعيدة سويًا، تتذكره وهو يواسيها بالكلمات ويبتاع لها الهدايا، تتذكره وهو يعدها بالزواج حالما تنتهي فترة الدراسة، لكن هذه الذكريات تتبخر مرة واحدة، تتبخر وتتلاشى ولا يبقى منها سوى هذه الكلمات القاسية.

تتذكر ما الذي حدث وجعل هذه الفجوة تتسع بينهما، فهي متأكدة أنه كان يهيم بها عشقًا، نظراته الشغوفة حينما يراها كانت تُعرب عن ذلك، كلماته الحانية التي أغرقتها ببحور عشقه أكدت لها أن هناك سهم ناريٌ قد اخترق علاقتهما ودمرٌها، سهمٌ أطلقته نظراتٌ عاشقة أخرى.

توُقفت أفكارها عِند هذه النُقطة لتتقدم بجسدها للأمام حتى تضع قدمها على عتبة الباب مانعة إياه من إغلاقه، كانت نظراتها المنكسرة وعيناها الحمراوان الباكتيان مصوُبتان نحوه وهي تتحدث بكلماتٍ ثابتة تحمل غلٌ العالم وحِقده على تلك التي تسببت بهدم علاقتهما:

-مين هي ؟ .... مين إللي خليتك تكرهني وتحبها ؟

بقي صامتًا أمام نظراتها المُنكسرة، لا يريد الإجابة على سؤالها رغم أنه يعرف من هذه الفتاة التي اقتحمت فؤاده حينما رآها بالصدفة مع فرح، والأصعب أن هذه التي تحتل عقله لا تعرف شيئًا عن مشاعره أو حتى فؤاده المُعذب، بل أنها تعامله وكأنه غيُر موجود.

-ده شيء ميخصكيش

هكذا أنهى أفكاره بتلك الكلمات الجامدة المُختصرة التي أكدت شكوكها وجعلتها أكثر غلًا وحقدًا، دفعها بتروٍ حتى تبتعد عن منزله ثم أغلق الباب تاركًا إياها تكاد تنفجر من الغضب، تعزم على إيجاد تلك الفتاة التي دمرٌت أحلامها الوردية وتكيل لها الضربات حتى ترديها صريعة، فهي السبب في تحطم فؤادها، وهي لن تُسامح على هذا أبدًا.....

سطعت الشمس مجددًا في يومٍ جديدٍ ربما يحمل معه بداية جديدة، تجلس لميس على مِقعدٍ خشبي وجسدٍ لا يتوُقف عن الارتجاف، عيناها جافتان من كثرة البُكاء والجروح تحتل قسمات وجهها البريء الذي تشوٌه بسبب صفعات الحياة، لا زالت تتذكر تهربها من المنزل بسرعة دون تناول الفطور، لا زالت تتذكر عمتها التي حاولت الاختباء منها حتى لا ترى جروحها وكدماتها وتقع هي في هوة الارتباك والخوٌف، لا زالت تتذكر صفعاته وركلاته التي انتهت بـ...

تعالت شهقاتها عند هذه الخاطرة وانهمرت دموعها بقهرة، لا تعرف متى ستتخلص من هذا العذاب، تدعو ربها ليل نهارٍ أن ينجدها أو يأخذها عنده، فهي لم تعد تتحمل، ما يجعلها تتحمل هي هذه الجامعة التي تذهب إليها حتى تهرب من عذابها، تجتهد في دراستها حتى تبحث عن وظيفة جيدة وترحل عن ذاك المنزل، هكذا تُمني نفسها

حتى تستطيع أن تتحمل هذه الإهانة، فهي على يقينٍ بأن لا أحد سيتزوجها، فلا أحد سيتزوّج فتاةٌ قد تلطخ شرفها أكثر من مرة.

شعرت بطيف أحدهم يجلس بجوارها لترفع نظراتها ببطءٍ حاولت معه كفكفة دموعها والمحافظة على ثباتها، وجدت فرح تتحرك نحوها بعينين حمراوتين وكأنها كانت تبكي ليلة أمس وغفت فوق دموعها، حتى أنها كانت تُرحب بها بكلماتٍ باهتة :

-ازيك يا لميس .... إيه ده !! مين إللي عمل كدة ؟

عقدت حاجبيها بقلقٍ حالما وجدت هذه الجروح تُلطخ وجه لميس مما جعل الأخرى تزداد ارتباكًا وهي تُجيب بكذب:

-لأ مفيش أنـا .... وقعت من السِلم

بالطبع لن تُخبرها أن زوج عمتها قد لطخ شرفها مُجددًا، فهي لن تستطيع التذكر ولا تُريد ذلك حتى، تُريد أن تغرق في النسيان حتى ولو انتهى هذا الغرق بفُقدان حياتها.

ورغم أن فرح لم تُصدق حديثها لأنها تعرف زوج عمتها الحقير وتعرف ما الذي يفعله معها، إلا أنها تجاهلت الأمر وقررت الحديث عن مُشكلتها التي ترى أنها لا تضاهي أي مشكلة أخرى من وجهة نظرها.

-معاذ قالي إنه مش بيحبني

قالتها بكلماتٍ مُحطمة جعلت الأخرى تتناسى أوجاعها وتلتفت إلى صديقتها لعلها تُربت على أحزانها، فلا أحد يفعل معها ذلك.

-إيه !! .... إزاي ؟ .. وامتى الكلام ده ؟

سألتها بذعرٍ آجابت عليه فرح وعيناها غائرتان في بُقعة شاردة جعلتها تتحدث بانكسار:

-امبارح بليل .... روحتله عشان اعرف هو مش بيرد عليا ليه .... وهو قالي إنه ... إنه مش بيحبني

اجهشت بالبكاء بعد حديثها وبدأت شهقاتها تتعالى أمام لميس التي انفطر قلبها على صديقتها ذات القلب المُحطم، فهي تعرف كم أنها تُحبه وتعرف قصة الحُب الأسطورية التي كانت بينهما والتي لم تتوُقع أنها ستنتهي هكذا.

اقتربت نحوها لترفع يدها الهزيلة وتبدأ بالتربيت على كتف صديقتها لعلها تُخفف من أوجاعها، وجدت فرح جسدها ينجذب إلى ربتات لميس الحانية ويندفع إلى صدرها لتبدأ بالبكاء عليها وكأنها ستُنفس عن أحزانها بهذه الطريقة:

-أنا معملتلوش حاجة .... والله مكنتش بضايقه، أنا كنت بعمل كل حاجة عشانه والله....

كانت تبصق هذه الكلمات المُنكسرة بين بكاءها لتزيد لميس من ربتاتها وهي تواسيها:

-خلاص متعيطيش ... هو أصلًا ميستاهلش واحدة زيَك...

-بس أنا مش هقدر .... مش هقدر اعيش من غيره

هكذا كانت تقول بين دموعها لتحتد لميس وهي تواسيها ولا تعرف لماذا كانت كلماتها مُحتدة، ربما كانت تُريد أن تُخبر فرح أنها تتحمل ما هو أبشع من الفراق ولا زالت على قيد الحياة، وربما غاضبة من فرح التي ترى هذه معضلة كبيرة ستنهي حياتها بسببها:

-يعني إيه مش هقدر أعيش من غيره ... كان أكسجين يعني واحنا منعرفش .... بعدين الرجالة على قفا مين يشيل ... وكلهم صنف واحد ... ميستاهلش غير الزبالة

قالتها بغلٍ دفينٍ تذكرت معه زوُج عمتها وربطت ما بينه وبين هذا الحقير معاذ الذي ترك صديقتها وكان يتلاعب بمشاعرها، الأمر الذي أخفض القليل من نيران الأخرى وجعلها تبتعد عن صدر لميس وتكفكف دموعها رغم غلُها الدفين لذاك المدعو بمُعاذ وتلك الفتاة التي تركها من أجلها.

-يلا ... يلا روحي اغسلي وشك قبل المحاضرة

أدلت لميس هذه الكلمات وهي تدفع فرح بعيدًا عنها حتى تذهب وتُمرمغ وجهها في المياه حتى لا يُلاحظ أحدهم أنها كانت تبكي؛ استجابت فرح لكلماتها الأموية الحانية وابتعدت عنها لتثب عن المِقعد الخشبي عازمة على الذهاب إلى المرحاض لمحو آثار البكاء ومواصلة حياتها، فهي لن تترك لمعاذ فرصة تحطيم فؤادها بهذه السهولة، ستنتقم منه ومن عشيقته ثم ستواصل حياتها بفؤاد راضٍ.

ما إن ذهبت فرح حتى عادت الارتجافة تسري بكيانها ودموعها المكبوتة تطفو على اليابسة، تُحرك جذعها للأمام والخلف وعقلها يُعذبها ويستعرض أمامها لمساته الحقيرة وشرفها الذي يتمرمغ يوميًا، يُذكرها أنها فتاةٌ ضعيفة يعبث بها زوٌج عمتها ويتخذها لعبة بين يديه ليرضي بها شغفه، لو لم يكن زوٌج عمتها كبيرٌ بالعُمر لمَ ظنُت أن هناك جنينٌ بأحراشها بسبب اعتداءاته اليومية.

حاولت التهدئة من نبضات فؤادها لتُعدل من حجابها وهي ترفع رأسها للسماء، تدعو في قرارة نفسها أن يُخلصها ربها من هذا العذاب بأية طريقة، تُغلق عينيها وهي تتلو هذه الأدعية التي نطقها فؤادها قبل عقلها، كان ذلك قبل أن تقطعها تلك الكلمات الحانية:

-لميس

انتفض جسدها إثر هذا الصوٌت الذكوري الذي آعادها إلى الواقع، تصلب جسدها مرة واحدة وهي ترى معاذ يجلس بجوارها على بُعد أمتارٍ منها، يرمقها بنظراتٍ قلقة وعينان بدا بهما الاهتمام:

-إنتِ كويسة ؟

توترت لميس وشعرت بسخونة تجتاح جسدها، لا تعلم ما الذي أتى به إلى هنا، ولا تعلم لماذا يسأل عن أحوالها، كانت حيرتها سببًا بالجام لسانها وجعله عالقًا لا يستطيع الحديث، بينما كانت نظرات معاذ المُهتمة تُحدق بجروحها ثم يعبث بحقيبته حتى أخرج قطعة من القطن مع زجاجة من الدواء الذي سكبه عليها لعله يستطيع معاجلتها، فهو قد لاحظ جروحها عندما أتت إلى الجامعة، وقرر فوٌرًا أن يبتاع لها الأدوية ثم يسألها عن ذاك الذي تسبب بهذه الجروح لعله يُسدد له ضربة قاضية.

-لازم تُحطي الدوا ده .... كدة الجرح هيتلوث

قالها وهو يُقرب قطعة القطن من وجنتها لتنتفض لميس وتبتعد عن يديه وما زالت عيناها ترمقانه بارتباكٍ وحيرة، وبعض الغضب:

-حضرتك بتعمل إيه ؟ .... ومين قالك تتدخل في حياتي أصلًا ؟

اندفعت بوجهه بتلك الكلمات الغاضبة التي جعلته يرتبك ويحني يده ليعتذر لها:

-أنا آسف والله ... أنا بس ... كنت عايز اساعدِك

-وأنا مقولتش لحد يساعدني

هكذا هتفت بوجهه بنبرة غاضبة أعقبتها بالوثوب عن المقعد والابتعاد عنه قبل أن تنفجر بوجهه، فهي على شعرة من الانفجار، لم يُرد معاذ أن يستسلم بهذه اللحظة وآراد أن يفصح لها عن مشاعره، فهو قد تخلص من هذه العلكة التي كانت عائقًا بينهما، وها هي اللحظة المناسبة حتى يعترف لها بمشاعره، فهو لن يواصل مراقبتها من بعيد ومشاهدة صوُرها، حتى أنه كان يسأل فرح دائمًا عنها مما جعله يريد انتشالها من حياتها التعيسة، فقد أخبرته فرح أن صديقتها لميس وحيدة تقطن مع عمتها وزوُج عمتها الوضيع الذي يضربها ويعتدي عليها، ورغم أن فرح كانت تقول ذلك بدافع الشفقة، وحتى تجعله يراها تشفق على فتاةٌ يتيمة وتصادقها حتى يتعلق بها أكثر، إلى أنها دون قصد، جعلته أكثر تمسكًا بلميس وبات يرغب بالزواج منها وتخليصها من حياتها التعيسة.

-لميس استني .... أ..أنا عارف كل حاجة

أوقفها بهذه الكلمات التي جعلتها تلتفت نحوه وترميه بنظراتٍ حائرة وفؤاد يتضارب بشكٍ، فما الذي يعرفه هذا، لا، ليس بالطبع ما يدور بخلدها، أو ربما هو.

-أنا عارف إللي جوز عمتِك بيعمله ..... ومستعد اعمل أي حاجة عشان اتجوزِك واخلصك منه

اشتعلت نيران الغضب من عيني لميس التي شعرت وكأنه يشفق على حالتها، رغم أنها تتعجب من معرفته بتلك الأسرار التي لم تُخبر بها أحدهم سوى.... حسنًا، الآن تعرف ممن حصل على هذه المعلومات.

-وأنا مش عايزة حد يشفق عليا .... بعدين إيه البجاحة دي، يعني تسيب صاحبتي وجاي دلوقتي تقولي نتجوّز_!!

قطع معاذ كلماتها المُندفعة بكلماتٍ صادقة تبعها بنظراتٍ عاشقة كانت تلوح بعينيه:

-بس أنا مش بشفق عليكِ .... أنا فعلًا بحبِك، من أول مرة شوفتِك فيها وأنا مبطلتش تفكير فيكي ..... أنا حتى كنت بسأل فرح عنِك طول الوقت....

لُجم لسانها إثر هذه الصدمة التي اجتاحتها، لا تُريد أن تصدقه وتنجذب إلى نظراته لكنها لا تعلم لماذا تستشعر صدقه في الحديث، هذا ما جعلها تُحافظ على صمتها وهي تواصل الاستماع إليه:

-إنتِ هي البنت إللي بدوّر عليها .... إنتِ الوحيدة إللي بحلم إني اكمل معاها العُمر كله....

بقيت صامتة لا تستطيع الحديث رغم أنه ينتظر إجابتها على أحرِ من الجمر، ينتظر أن تُعطيه فُرصة حتى يُعرب لها عن مشاعره، فهي الوحيدة التي استوطنت فؤاده من بين جميع النساء اللآي اقتحمن حياته، هي الوحيدة التي جعلته مسلوبًا أمام عينيها الجذابتين وبراءتها التي يراها ولا يفصح عن إعجابه بهم.

-لميس .... لو سمحتي إديني فُرصة .... ولو مش مصدقة خلينا نكتب الكتاب علطول .... وأنا والله هعيشِك ملكة، وهخليكي تنسي كل عذاب شوفتيه في حياتِك

ما زالت الصدمة تلوح على جسدها وهي تطالعه بغير تصديق، لا تعرف كيف لم تلاحظ هذه المشاعر المدفونة، أو أنها لاحظتها واختارت أن تتجاهلها، قررت أن تتجاهلها بسبب...

توّقفت أفكارها مرة واحدة بعد أن كادت تغرق في بحور العشق وتتخيله ينتشلها من حياتها التعيسة ويقوم بتعوّيضها، فإن كان العوّض سيأتيها بعد طعن صديقتها، فتبًا لهذا العوّض.

-وإنت بقى مُتخيل إني هرضى ابقى معاك وهخون صاحبتي!!

خرجت من صدمتها بتلك الكلمات الحادة التي جعلت ثقته تتزعزع وهو يقول نافيًا:

-أنا مُكنتش بحبها ... أنا محبتش حد غيرِك إنتِ

زاد غضبها أكثر وهي تندفع بوجهه:

-وأنا مش هخون صاحبتي حتى لو اترجتني....

حاولت التهدئة من نبضاتها المتعالية لتحافظ على هدوئها وتتناسى ما حدث، تتناسى كلماته الحانية التي لأول مرة تستمع إليها، تتناسى نظراته العاشقة التي آعادت روٌحها المكلومة، تفعل ذلك فقط من أجل صديقتها، فهي لن تتخلٌى عنها بسبب زير نساءٍ يعبث بمشاعر الآخرين حتى ولو كان مُستعدٌ للتغيير من أجلها.

-ياريت تبعد عني يا أستاذ معاذ .... والكلام إللي بينا ده .... أنا مش هوٌصله لفرح

قالتها بتقريرٍ وثباتٍ رغم الغصة التي اعتلت قلبها، ابتعدت عنه لتتركه مُحطمًا يراقب طيفها بخيبة أمل، فقد ظنٌ لوهلة أنها ستوافق عليه وتُخبره أنها أيضًا تبادله هذه المشاعر، فهو الذي كانت الفتيات تصرخ من السعادة حينما يتحدث معهن، تأتي هذه الفتاة وتجعله مسلوب الإرادة لا يستطيع أن يُعلقها بحباله، رغم أنها الوحيدة التي أفتن بها، ولن يستسلم حتى ينالها....

تتحرك لميس خارج الجامعة تتجاهل محاضرتها التي أوشكت على البدء وتقرر البقاء في بقعة نائية، فبعد أن كانت الجامعة ملاذها من منزلها الأشبه بالجحيم، باتت جحيمًا آخرًا يُعذب روحها قبل جسدها، فهي لن تبقى في هذا المكان بعد أن أدركت ما يكنيه مُعاذ من مشاعر اتجاهها، لن تتحمل الحاحه عليها ومراقبته لها من بعيد حتى تنجذب نحوه وتتناسى صديقتها، فهي لن تضحى بهذه الوضاعة، قررت أن ترحل من الجامعة وتبقى بأحد المطاعم ثم تتجوٌل وتعود إلى المنزل مُرغمة حتى لا تقلق عمتها، قطع شرودها صوٌت هاتفها الذي صدح في جيبها لتتوٌقف عن السيٌر وتُخرجه لتجد اسم فرح يُزين الشاشة.

آزاحت الارتباك عن ملامحها وهي تُجيب على المكالمة:

-ألو يا فرح .... ماشي تمامًا ... لأ أنا أصلًا مش عايزة أحضر .... خلاص ماشي هشوفِك هناك ... سلام

أغلقت المكالمة بعد هذه الكلمات المُختصرة التي انتهت باتفاق على الذهاب سويًا إلى مكانٍ كان يضم ذكرياتهما في يومٍ من الأيام، وكانت فرح من الجهة الأخرى تقف على بُعد أمتارٍ من لميس، تراقبها بنظراتٍ مُشتعلة وغلٍ ينبثق من عينيها، فهي لن تنسى معاذ وهو يعترف لصديقتها ... بعشقه لها!!

حفيف الأشجار تتعارك مع هذه الرياح العليلة لتخلق من هذه اللحظة لحظة ثائرة تزداد فيها لوعة الاضطراب والانكسار، وربما الغضب...

تتحرك فرح في تلك الحديقة النائية ذات الأشجار الكثيفة والحشائش القليلة الذابلة، تتحرك والنيران تنطلق من عينيها رغم ثباتها الذي كانت تدُّعيه، وكانت لميس تتحرك خلفها لا تعلم ما الذي يحدث لصديقتها ولماذا تتحرك بهذه الخطوات السريعة، تعلم أنها أخبرتها ذات مرة أن تأتي إلى هذه الحديقة التي كانت مخبأهما فيما سبق، لكنها لا تعلم لماذا القرار تم تنفيذه بهذه السُرعة.

-فاكرة المكان ده ؟.... كنا بنيجي نلعب هنا استغماية

قالتها فرح بكلماتٍ مُستذكرة وغصة مريرة تعتلي صدرها، فهي الآن تشعر أن رفيقة دربها قد طعنتها في صدرها، والأخرى لم تكن تعرف أي ذنبٍ اقترفته، هي حتى كانت تصيح بمُعاذ وتُخبره أن يبتعد عنها من أجل صديقتها، الأمر الذي لا تعرفه فرح.

-أيوة طبعًا فاكرة .... دي كانت أيام حلوة أوي

ابتسمت لميس ابتسامة هادئة وهي تقول هذه الكلمات المُستذكرة لتشتعل فرح غضبًا وتتوُقف عن السير أمام حجارة كبيرة كانت تجلس عليها قديمًا هي ولميس، أما الآن، تشعر أن هذه الصخرة ستشهد على افتراقهما نهائيًا.

-فعلًا .... كانت أيام حلوة .... بس الظاهر كدة إن في ناس عايزة تنسى الأيام دي عشان مصلحتها

لم تفهم لميس حديثها المُبطن ونبرتها الغاضبة فطفقت ترمقها بحيرة ودُّت معهم أن تستطيع قراءة ما يجول بخاطر صديقتها:

-مـ...مش فاهمة .... مصلحة مين ؟_

انفجرت فرح بوجهها لتقطع حديثها بنبرة ثائرة:

-إنتِ هتعمليلي فيها عبيطة !! ..... أنا شوفتِك بعنيا وإنتِ واقفة تدحلبي قدامه وهو بيقولِك قصيدة .... إنتِ إيه !! مفكرتيش فيا ؟ متعرفيش إن أنا بحبه

تسارعت ضربات قلبها وبدأت السخونة تجتاح جسدها، حدث ما كانت تخشاه، وما لا تُريده أن يحدث، لماذا تصرٌ الحياة على كشفنا أمام الملأ رغم أنها تعلم أنها لم تُخطيء وأنها أبعدته ولم تسمح له بالاقتراب منها، لكن يبدو أن صديقتها لم تستمع إلى هذا الشِق من الحديث.

-إ...إيه إللي بتقوليه ده يا فرح .... أنـاا .... أنا لا يُمكن أقرب من حاجة تخُصك_

كادت تُبرر لنفسها كمُتهمٍ يحاول إثبات براءته، وكانت فرح كالقاضي المُجحف الذي يصرٌ على إصدار حُكم الإعدام رغم براءة المُتهم، فكانت تقطع حديثها بلكنة مُحطمة صارخة كذَّبت معها ما تقوله لميس، فهي لن تُصدقها وتُكذب عينيها:

-كدابة .... أنا سمعته وهو بيقولِك إنه بيحبك .... إنتِ السبب في إنه يبعد عني .... إنتِ دمرتيلي حياتي_

-كفاية بقى....

انفجرت لميس في تلك اللحظة وكأنها قُنبلة مؤٌقوطة كان تنتظر لحظة الانفجار، فهي لن تتحمل كلمات فرح السامة، لن تتحمل المزيد من الطعنات، يكفي ما تعانيه بحياتها، كانت تنتظر أن تُربت صديقتها على ظهرها وتُخبرها أن تتماسك وتواجه زوٌج عمتها وجميع من يؤرق حياتها، لكنها لا تلقى سوى هذه النظرات الغاضبة وتلك الكلمات التي تتهمها بالخيانة.

-كفاية بقى ... إنتِ متعرفيش حاجة .... أنا عملت كل حاجة عشان أرضيكي .... خليته يبعد عني عشانِك .... جاية دلوقتي تقوليلي إن أنا خاينة ؟

كادت تعترضها فرح لكن لميس أوقفت كلماتها بنبرتها الصارخة ودموعها المتحشرجة:

-أنا كل يوم بتعرض لاغتصاب وضرب وقلة قيمة وحاطة جذمة في بوقي وساكتة ومستحملة ..... كُنت بتمسك بيكي عشان استحمل واصبر على الأيام السودا إللي بشوفها .... ومع ذلك عُمري ما اشتكيتلك ولا قولتلِك تساعديني ..... أنا حتى لما قولتلِك عن إللي عمي بيعمله معملتيش حاجة ... أنا إللي طول الوقت بطبطب واواسي واسمع مشاكلك التافهة

بدأت أنفاسها تتعالى وتهبط والدموع تنزلق من عينيها أمام نظرات فرح المُشتعلة المقيتة، فلميس تتهمها صراحة بأنها صديقة أنانية لا تهتم سوى بمصلحتها، حسنًا، وهي بالفعل كذلك.

-وجيالي دلوقتي تعيطي وتقوليلي مُعاذ سابِك .... يا شيخة دا أحسن قرار أخده .... لأنه مش هيستحمل واحدة أنانية زيِك

آشارت إلى فرح عقب حديثها بأصابع الاتهام التي جعلت النيران تحتدم بعينيها حتى وجدت يداها تهبطان على وجنة لميس لتصفعها صفعة قوية، لا تعرف ما الذي حدث لها في تلك اللحظة، تشعر أنها تحوَّلت إلى وحشٍ ثائر، وأمام من، أمام صديقتها التي كانت ملاذها من ذاك العالم.

اشتعلت نظرات لميس وهي تتحسس وجنتها موَّضع الصفعة التي تلقتها من تلك التي ظنَّت أنها صديقتها، وهذا فقط لأنها واجهتها بأخطائها، تذكرت الصفعات والضربات والاعتداءات التي تتلقاها يوميًا ومُنذ نعومة أظافرها، تذكرت الإهانة التي تتعرض لها وتحافظ على صمتها حتى لا تتصاعد الأمور، لكن الآن، أضحت مُتيقنة أن الصمت لن يزيدها إلا عذابًا، لن تصمت عن حقها بعد اليوم، ستنفجر بالجميع حتى لو انتهى الأمر بضياعها.

-بتمدي إيديك عليا يا*

قالتها بنبرة غاضبة ونظراتٍ مُشتعلة مع سبة نابية التقتطها من رضوان قبل أن ينقض عليا، انتشلت بعدها خُصلات فرح التي أطلقت صرخة مُستغيثة من جوُفها وهي تحاول التملص من قبضة لميس التي انفجرت مرة واحدة وبدأت تصفعها لتحفظ كرامتها، وكانت فرح في المقابل تجذب وشاح صديقتها وثيابها وهي تتعارك

معها وتركلها بقدمها، لتتعالى صرخات الاثنتين ولو كانت هذه الحديقة شاغرة بالسكان لمَ التف الجميع حوٌلهما عازمين على الحد من هذا الجدال.

كان ذلك قبل أن تتراجع فرح بضع خطواتٍ للوراء دون أن تنتبه لهذه الحُفرة المُغطاء ببعض الحشائش، فما هي إلا لحظاتٌ قصيرة حتى انطلقت صرخة مدوٌية وجسدًا يغوٌص في الأرض ويسقط في هذه الحُفرة العميقة!!

الفصل الثاني (العشاء الأخير)

لحظة واحدة فقط باستطاعتها أن تُغيِّر مِجرى حياتنا، فأما تجعلها تبحر في مروج المجد، أو تتمرمغ في نيران هاجرة....

عالم مشوَّش يطوف حوْلها، سماءٌ مُعتمة يحفها بصيصٌ نوْر يبدو على بُعد أمتارٍ منها، سائلٌ لزج تستشعره أسفل رأسها بألم ينحر عظامها ويجعلها تُطلق صرخة تعادل الصرخة التي أطلقتها حينما أنزلقت قدميها، لا تعرف ما الذي حدث، وما الذي آصاب رأسها، أو ما الذي أوقعها هُنا!!

-فرح ... فرح...

أفاقت فرح على هذه الكلمات الحانية لتحاول الاعتدال في جلستها تفرك عينيها بإرهاقٍ جام، استطاعت أن ترى لميس أمامها ترمقها بملامح تحمل مزيجًا من القلق والرهبة، ناهيك عن نبضات قلبها المذعورة التي حاولت اخفاءها وهي تقترب من صديقتها، تتناسى عراكهما السابق وتُركز فقط على هذه المُعضلة، وهذه الحُفرة التي وجدا أنفسهما بداخلها.

-هـ...هو إيه المكان ده ؟

قالتها فرح بذعرٍ وهي تحاول الوثوب وهي تتلفت حوْلها، ما هذه الحُفرة العميقة ؟ وكيف سقطتا بها ؟ تتذكر فقط حينما كانت ترد على صفعات لميس وتتشابك معها بالأيدي حتى وجدت نفسها في تلك الحُفرة مع لميس التي على الأحرى تعركلت وسقطت معها.

كانت فرح تتلفت حوْلها في ذعر على عكس لميس التي كانت تحافظ على هدوئها وهي تعثر على طريقة للنجاة من هذه الحُفرة، وضعت يدها على جرحها تحاول احجام هذا الدوْار الذي تشعر به والذي يجعلها تكاد تفقد وعيها مُجددًا، بينما كانت لميس تتلمس الجِدار بيديها هاتفة بخيبة أمل واستنتاج:

-شكلنا وقعنا واحنا بنتخانق

ارتجفت فرح وهي تتلفت حوٌلها بذعر ثم تلاحظ حقيبتها الملقية على الأرض بجوارها، تدفق بداخلها بعضًا من الأمل وهي تهرع نحو الحقيبة تنتشلها بذعرٍ عن الأرض وتعبث بمحتوياتها حتى تُخرج هاتفها، قامت بفتحه بنبضاتٍ مُتسارعة ظنٌت معهم أنها ستستطيع أن تتصل بشقيقها وتُخبره أنها هنا وأنها بحاجة للمساعدة، لكن آمالها تذهب أدراج الرياح حينما تحاول الاتصال وتأتيها تلك الرسالة التي تُخبرها بفشل المحاولة وبأنه لا وجود لتغطية أسفل هذا العُمق.

ترقرقت دموعها على وجنتيها وقد ازداد ذعرها وشعورها أنها في مأزق، حمدت ربها أنها ليست وحيدة وأن صديقتها معها ستشد بعضدها وهي في تلك الغُمة.

أغلقت الهاتف وآعادته إلى الحقيبة بخيبة أملٍ ثم هرعت نحو بصيص الضوء لترفع رأسها وتبدأ الصياح باستنجاد:

-يا جمـــاعة .... حد يســـاعدنا ....

بقيت تصرخ بأعلى ما لديها لعل أحدهم سيسمع صراخها ويأتي لنجدتهما، لكنها لا تجد في المقابل سوى الصمت، الصمت الذي كاد يقتلها ويجعلها غارقة في هِوة اليأس وقلة الحيلة.

تحشرج صوٌتها وكادت حنجرتها تتمزق إثر صراخها الحاد الذي أوقفته لميس بكلماتها الحكيمة ونبرتها المبحوحة المُستسلمة:

-مفيش حد في المكان ده .... خليكي ساكتة عشان نعرف نسمع لما يكون في حد

أنهت الحديث بنبرة حكيمة جعلت فرح تُطلق زفرة ملتاعة ثم ترفع يديها لتزيح خصلاتها المتناثرة وتُجفف الدماء العالقة بجرح رأسها، تشعر أن العالم أضحى حجرة صغيرة ضيقة يتقلس فيها الهواء، تشعر بأنفاسها تختنق وبرغبة عارمة بالبكاء والصراخ، لا تعرف لماذا يحدث معها هذا، كيف للحظة قصيرة حدثت في غمضة عين أن تنتهي بها هنا، عالقة بين شقي الرُحى، ولا تعرف سبيلًا للنجاة.

وضعت يدها على صدرها لعلها تستطيع التهدئة من نبضاتها المتعالية، كان الظلام دامسًا حوٌلها لكنها بدأت تعتاد الرؤية، وكأن عيناها قد اعتادتا هذا الظلام، تطلعت بُرهة نحو لميس التي ارتكنت بأحد الجوانب وعيناها غائرتان يحملان خيبة الأمل،

لوهلة اعتقدت أن لميس قد فقدت أحاسيسها، فلم يكن يُصدر منها سوى الهدوء والسكينة، وربما ذلك بسبب ما تعانيه من حياةٍ قاسية، وربما اعتقدت هذا المأزق منفذًا لها من حياتها الصعبة.

حاولت فرح أن تُهديء من روُّعها وهي تأخذ حذوها نحو لميس لعلها تلتقط منها شيئًا من مثابرتها، أو لعلها وُضعت معها بهذا المأزق حتى تُرمم الشقوق التي حُفرت بينهما، تحركت خطوة واحدة فقط ليقطعها صوُّت هامس كان يضرب أذنها، صوُّتٌ لا تعرف من أين أتى، لكن وجوده سبب قشعريرة بجسدها.

-إهربي...

كان الصوُّت قريبًا لدرجة جعلت جسدها ينتفض مرة واحدة ويتلفت حوله في ذعر، تسارعت نبضات قلبها وجحظت عيناها وهي تجوُّب بحدقتيها داخل هذه الحُفرة المُظلمة لعلها تُدرك صاحب الصوُّت، لكنها لا تجد سوى الفراغ.

سرقت أنفاسًا متتألية حاولت اطلاقهم في انتظامٍ ثم أغلقت عينيها بُرهة من الوقت لعلها بذلك تستطيع التهدئة من روُّعها، لم يكن هذا الصوُّت سوى وهمٌ اختلقه عقلها، لم يكن هذا الصوُّت حقيقيًا، هكذا كانت تُخبر ذاتها وهي تُغلق عينيها وتُمني نفسها أن هذا مُجرد كابوس وستفيق منه عمَ قريب، ستفيق وتجد أنها داخل حُجرتها تُيقظها والدتها من أجل تناول الفطور، فتحت عينيها ببطء وتروٍ وما زالت تهِم عقلها أن ما يحدث حوُّلها ليس حقيقيًا ... لكن فجأة...

-اهربي...

أطلقت فرح صرخة مذعورة حالما فتحت عينيها فجأة ووجدت هذه الطفلة الصغيرة ذات الرداء الأبيض والعينان الغائرتان السوداويتان تقف أمامها مباشرة، ترميها بملامح باهتة وتقول هذه الكلمة التي تتردد على أذنها مُنذ وطأت هذا المكان .... إهربي، هكذا كانت تقول.

انتفض جسد فرح ما إن رأت هذه الطفلة التي لا تعرف من أين أتت، تسارعت نبضات قلبها وزاد معها ارتجاف بدنها وهي تتلفت حوُّلها بحثًا عن تلك الصغيرة التي تلاشت مرة واحدة، وكأنها أتت فقط لتبثها كؤوسًا من الذعر.

-في إيه ؟

هكذا صرخت لميس وهي تهرع نحو صديقها التي كانت في حالة هيستيرية تتلفت حوٌلها في ذعر والعرق ينسل من جنباتها:

-فـ...فـ..في...ا...أنا ...أنا شوفت واحدة ... كـ..كانت..

بقيت تبصق هذه الكلمات غير المُرتبة وهي تُشير بإصبعها على بُقعة كانت تقف فيها هذه الصغيرة، وكانت لميس تتلفت حوٌلها هي الأخرى تحاول العثور على هذه الفتاة التي رأتها صديقتها لكنها لا ترى شيئًا، لا ترى سوى صديقتها المذعورة التي كان يلوح على وجهها علامات الخوٌف:

-خلاص اهدي ... الإصابة إللي في دماغِك ممكن تخليكي تشوفي حاجات مش حقيقية

هكذا قالت لميس باستنتاجٍ وهي تُهديء فرح وتجذبها من ذراعها بحنانٍ حتى تجلس معها بأحد الأركان حالما يأتي أحدهم لإنقاذهما، وكانت فرح تسير خلفها مسلوبة الإرادة ما زالت تهم عقلها أن هذه الطفلة لم تكن سوى وهمٌ اختلقه عقلها المُرهق، ما زالت تهِم نفسها أنها ستخرج من هذه الحُفرة وتعود إلى حياتها الروتينية المملة....

دقت ساعة الصِفر وانتهى معها آخر دفقات الضياء المتوٌثبة، تضرب يدها على فخذها أكثر من مرة بعد أن طغى على ملامحها نيران الذعر والقلق، أنفاسها تتسارع في لوعة ودموعها تتساقط بهوادة، لسانها لا يتوٌقف عن الدُعاء وقلبها لا يتوٌقف عن التضرع.

-يارب ... يارب....

كانت تقولها بين كل فينة وأخرى ثُم تضرب على فخذها بقلقٍ وتثب عن الأريكة لتجوٌب البهو لعلها توٌقف قلقها، أو لعل صغيرتها الوحيدة تدخل من باب المنزل وتمنع عنها هذا القلق.

لحظاتٌ وجيزة حتى وجدت باب المُنزل يُفتح فتعود إليها بوادر الأمل وهي تجد مؤيد يدلف المنزل وحالته لا تختلف رثاءً عن والدته، اعتقدت لولهة أنه سيأتي ومعه فرح لكنه يأتي وحيدًا وربما عوالم القلق تزداد على ملامحه أيضًا.

-لقيتها ؟ .... عرفت هي فين ؟

هكذا كانت تسأله لعله يرضي قلقها ويُخبرها أنه عثر عليها، لكنه يُحطم آمالها بإجابته اليائسة:

-دوّرت عليها في كُل حتة .... روحت لاصحابها كلهم وقالو انهم ميعرفوش عنها حاجة .... وروحت للميس صاحبتها، وعمتها قالتلي إنها مُختفية هي كمان

تعالى صوُت نبضاتها وتدفقت الدموع من حدقتيها وهي تدعو وتبتهل، ترجو ربها أن يُعيد لها ابنتها سالمة، فها هي الساعة قد شارفت على الواحدة بعد مُنتصف الليل وابنتها لم تعُد بعد.

-طـ... طب اتصل بيها تاني ؟

-اتصلت كتير ومش بترد ... وموبايلها مش مجمع

كانت إجابته كالطعنة التي نحرت عُنقها، بدأ عقلها يؤكد لها تلك الأفكار السوداء التي كانت تجوُل بذهنها مُنذ تأخر وحيدتها، بات عقلها يؤكد لها أنها اختطفت وأنهم قد انتهكوا عرضها وألقوها بين سلة المُهملات، وربما فعلوا ذلك مع صديقتها أيضًا.

كان عقلها يُعذبها بتلك الأفكار التي كانت أشبه بالخيزران وهو يجلد صاحبه، كاد يتوُقف فؤادها ويرفع راية الاستسلام حتى لا ينجرف أكثر خلف هذه الأفكار، وكان مؤيد لا يختلف عنها وهو يعبث بهاتفه يحاول الاتصال بها للمرة المئة ولا تأتيه سوى تلك الرسالة التي تُخبره أن هاتفها لا يعمل وأنها في منطقة نائية لا يعرف عنها شيئًا.

غرق في هِوة الضياع وهو يُفكر في المكان الذي ذهبت إليه، ولماذا تذهب إليه من الأساس، لوهلة فكر أنها ذهبت إلى قبر والده وضاعت في الطريق لكنه يعلم أنها تعرف الطريق جيدًا ومن سابع المُستحيلات أن تضيع في تلك البُقعة، هو مُتيقنٌ أنها مع صديقتها، لكن أين هي صديقتها ؟ ... وأين هي شقيقته ؟؟....

تضم جسدها كالجنين بملامح شاحبة وجسدٍ مُجهد، لم تتناول شيئًا مُنذ الصباح وها هي الساعة تُشارف على الواحدة بعد مُنتصف الليل، وهي التي ظنُّت أنها ستخرج من تلك الحُفرة بعد ساعة أو ساعتين، تنهدت بحرقة وخيبة أمل كلما مرُّت دقيقة أخرى يذهب معها شِقًا من بصيص الأمل، بات عقلها يؤكد لها أنها ستموت هنا، فإن لم تقتلها جروحها، سيقتلها الجوع والعطش، انهمرت الدموع على وجنتيها وهي تُفكر بتلك الخاطرة ثم تتلفت صوٌب لميس التي تشاركها الجلوس وملامح وجهها ساكنة ورأسها مُرتمٍ على أحد الجوانب وكأنها تحاول الهرب من هذا المأزق عن طريق النوم.

رفعت لميس رأسها لتُمسد على رقبتها التي أرهقت من هذه الجلسة، لم تكن تتلفت إلى فرح أو حتى تعاتبها رغم تسببها بهذا الأمر، بل ربما آرادت حتى أن تتشكرها لأنها ستتخلص من حياتها الأليمة بضعة أيام، أو ربما تنتهي حياتها هنا وتتخلص من عذابها الأزلي.

التفتت فرح صوٌب لميس واحساس الندم يقتلها، فهي السبب في هذا المأزق، هي من أحضرت لميس إلى هنا، وهي التي تعركلت وجذبت لميس معها إلى هذه الهوٌة، كانت عيناها غائرتان تُقطران ندمًا وهي تقول بصوٌتٍ خافتٍ مُحملٌ بالإجهاد:

-أنا أسفة

انتبهت لميس إلى كلماتها لتُحرك رأسها قبالة الأخرى راميةً إياها بنظراتٍ جامدة لا تحمل قيٌد أنملة من المشاعر، الصمت هو فقط من تسيٌد الموٌقف، جعلها ترمق فرح بنظراتٍ تحمل أرطالًا من الانكسار والخُذلان، نظراتٌ كفيلة بالإجابة على فرح واخبارها ما لا تُريد الإفصاح عنه.

-لميس .... أنا بجد أسفة

قالتها فرح مجددًا بإصرارٍ رغبتٌ معه أن تسامحها لميس وتُخبرها أنها ستعود صديقتها المُقربة، لكن لميس لا تعيرها انتباها وهي تعاود النظر أمامها متفوٌهة بنبرة خافتة:

-مفيش وقت للكلام ده

فهِمت فرح أنها لا تُريد الحديث فاكتفت بالصمت وبقيتٌ تضم جسدها حتى كادت ركبتاها تخترقان أضلعها، ضاع عقلها في شزرات العالم الموُحش وبقيت تجوُب في بحور الذكريات لعلها تغرق بهم وتتناسى هذه الغُمة، فهذا ما يفعله العقل دائمًا حينما يضحى محاطًا بالخطر غارقًا في العذاب، يجعلنا نغرق في الذكريات والتخيُلات حتى نخلط ما بينها وبين الواقع فقط حتى نبقى على قيُد الحياة.

كانت على شعرة من تناسي هذه الغمة والمحافظة على ثباتها حتى تأتي فرق الإنقاذ، لكن يبدو أن العالم يقسم على تجرعها كؤوسًا من الألم و....الخوف.

صرخة مدوُية مذعورة أطلقتها فرح حينما شعرت بشيءٍ يقرض قدمها، صرخة مدوُية أعقبتها بأنينٍ وانتفاضة جسدٍ جعلتها ترتفع عن الأرض تشعر بوُغزاتٍ تنحر قدمها وسخونة تجتنح جوانبها، وثبت لميس هي الأخرى بملامح مذعورة تطالع صديقتها التي لا تتوُقف عن الصُراخ والأنين وترمق الأرض لتزداد ذعرًا ولوعة، فهناك أقدام صغيرة تتحرك باتجاههما عازمة على سبر أغوارهما وتناولهما على العشاء، أقدامٌ صغيرة يتبعها همساتٌ خافتة مُرعبة جعلت فرح ترتجف وتتمسك في لميس التي بدأت تصيح وتركل هذه الجِرذان!!

-اجري ... اجري بسرعة

هكذا كانت تصرخ لميس وهي تدفع فرح للأمام فتتبعها الأخرى وتبدأ بالركض بعيدًا عن هذه الجرذان التي انتشرت حوُلهما كالذباب، ازداد بدنها ارتجافًا وهي ترمق هذا الجرذ الأسود الكبير يتسلق الحائط ويقف على كتفها فتنتفض في لوُعة وتضربه بيدها حتى تناثرت دماءه وهو يرتطم بالحائط ويسقط بين جحافل الجرذان التي باتت غاضبة وهي ترى رفيقها يسقط صريعًا مما جعلها تنقض أكثر على الفتاتين عازمة على التهامهما أحياء.

ركضت لميس بأقصى ما لديها وكانت فرح تتحرك معها وهي تحاول التهدئة من ذعرها رغم عيناها التي كانتا تجوُبان الحُفرة وتصطدم بهذه الجِرذان التي تتحرك خلفهما كجيشٍ آراد الانقضاض على أعدائه،

يركضان بلوُعة في ممراتٍ ضيقة يزداد فيها الظلام، يركضان بأنفاسٍ مسلوبة ونبضاتٍ تعادل سرعة الماكوك، توُقفتا في بقعة ضيقة يقابلهما الجدار يليه حُجرة أخرى لا يعرفا ماهيتها، لكنها بالطبع لن تضحى أسوأ من هذه الحُجرة التي اتضح فيما بعد أنها كهفٌ مدفونٌ أسفل الثرى وربما يضحى شيئًا آخرًا.

تلاحقت أنفاس فرح وهي ترتمي على الأرض بعد أن تأكدت أنهما تخلصتا من جيش الجُرذان وابتعدتا كذلك عن بصيص الأمل، أي أنهما الآن في طريق التهلكة، ولن يعثر عليهما أحد، لكن هذا لا يُهم، على الأقل سيبقيان سويًا...

وغزاتٌ حادة باتت تقتلها وتجعلها تصرخ من الألم وهي ترتمي على الأرض تتلاحق أنفاسها وتشعر أنها على شفا جرفة من الموت، أرخت فرح ظهرها للوراء وهي تتلوّى من الألم ترفع سروالها القليل من الأمتار حتى استشعرت جرحها الغائر وتلك العضة التي سببها أحد الجِرذان؛ أطلقت صرخة مدوّية متالمة وانهمرت قطرات العرق على جبهتها حتى نفرت عروقها، تشعر بالسكاكين وهي تنحر قدمها وكانت لميس تجلس قبالتها على وجهها ملامح القلق وهي تُهدئها وتُخبرها أن تتماسك لكن فرح لا تستمع إليها وتواصل صراخها وهي تضع يدها على جرحها ثم تفتح حقيبتها بأصابع مُرتجفة ساعدتها على إخراج وشاحها الذي ترتديه في المحاضرات بسبب برودة الطقس.

كبحت صرخاتها وهي تنزع حذائها وتربط جرحها بهذا الوشاح ربطة قوية لعلها تجحم تدفق الدماء، وكانت لميس بجوارها تكاد الدموع تنبثق من عينيها وهي تساعد صديقتها وتطمئنها بالأحاديث.

ما هي إلا لحظاتٌ وجيزة حتى تلاشى شعورها بالألم وانتقلت إلى حالة اللاوعي، باتت الرؤية أكثر ضبابية وجسدها رخوًا كحلوى الهُلام، فقدت الشعور بحواسها ولم يبقى لها سوى شعور الضياع، تستشعر فقط ربتات لميس الحانية ومناداتها باسمها حتى تستيقظ ولا تستسلم للألم، لكن فرح لا تُعيرها انتباهًا وتستسلم إلى ارتخاء جسدها ورغبته بتسليم روحها لبارئها، تغلق عينيها ببطءٍ ورويدة لتستمع إلى آخر كلمة مذعورة انبثقت من لميس:

-فــرح...!!

انطلقت شهقة مدوِّية من جوِّفها كادت تجعلها تبصق روِّحها، وضعت يدها على صدرها تستشعر نبضاته وما زالت تستمع إلى اسمها الذي يتم مناداته خارج الحُجرة ... مهلًا، الحُجرة!!

التفتت حوِّلها في لوِّعة لتتأكد من ظنونِّها، نعم، هذا هو فراشها الدافيء، هذه هي سراحتها، هذه هي كُتبها الجامعية وحقيبتها، وهذا هو صوِّت والدتها.

سُرعان ما ارتسمت بسمة سعيدة على جوِّفها وهي تتأكد من ظنونها، هي داخل منزلها الآن، ليست في هذه الحُفرة الموِّحشة، ولم يكن ذلك سوى حلمٌ سيء، بل هو كابوس.

التفتت حوِّلها لتطالع الورقة التي تحمل أيام الأسبوع وترى تاريخ اليوم، الخامس من نوفمبر، تتذكر أنها في مساء هذا اليوم ستذهب إلى مُعاذ وتُدرك أنه لا يُحبها، تتذكر أنها ستقابل لميس صديقتها وستُخبرها عن هذا الفيلم العجيب الذي كانت تشاهده، مهلًا، لميس!!

تعرف أنها خائنة وأنها حطمتها، لكنها اتخذت قرارًا بألا تتعارك معها، ستحادثها بلينٍ وتفهمٍ، ولن تأخذها إلى تلك الحديقة، لا تُريد لحُلمها أن يتحقق، سعيدة بأنها تعرف ما يُمكن أن يحدث بالمستقبل حتى لا تُكرر هذه الأخطاء، سعيدة لأن لديها فُرصة أخرى لتصحيح ما اقترفته من ذنب وخطيءٍ حدث في غمضة عين.

ذهبت إلى المرحاض لتُمرمغ وجهها بالمياه ثم ترفع وجهها نحو المرآة لتبتسم ابتسامتها السعيدة ثم ترحل عن المرحاض لتقابل عائلتها بوِّجهٍ بشوشٍ نادرًا ما تقابلهما به، فدائمًا ما كانت تعامل عائلتها معاملة جافة ولا تتقبل مشاكسات شقيقها.

-صباحو .... ده إيه الانكشاح ده .... هو حد قالِك نُكتة وانتِ نايمة ولا إيه ؟

قالها شقيقها بمشاكسة وابتسامة عابثة جعلتها تقابله بابتسامة تعادلها ويداها تُصففان شعرها جيدًا على عكس العادة، فدائمًا ما تعقص شعرها وترتدي ملابس أشبه بمنامة النوم وهي في طريقها إلى الجامعة، أما اليوم، فكانت ترتدي أفضل ما لديها من ثيابٍ وتترك شعرها مُنسدلًا على كتفيها وكأنها ذاهبة إلى رحلة جامعية.

-وماله يعني لما أضحك ؟ .... شايفني عشماوي ولا إيه ؟

أدلت حديثها بنبرة مرحة جعلت شقيقها يرمقها بريبة، فهذه ليست شقيقته التي ترد عليه بجفاءٍ في كل مرة..

آزاحت فرح المقعد الملاصق للطاولة لتجلس عليه وترفع رأسها نحو ساعة الحائط لتجدها متوٌقفة عند الساعة الواحدة بعد الظُهر، الأمر الذي جعل الحيرة تغتابها، فهذه الساعة لم تكن متوٌقفة.

-هي الساعة بايظة ولا إيه ؟

هكذا سألت باستنتاجٍ ولم تجد من شقيقها أو حتى والدتها أية إجابة، فكان شقيقها منشغلٌ بإعداد الشطائر لنفسه ليتناولها بنهمٍ ووالدتها تواصل اعداد الطعام وكأنها لم تستمع إلى سؤال فرح.

أخرجت فرح هاتفها لتطالع الساعة وترى مِعاد محاضرتها حتى لا تفوٌتها، فهي مُتيقنة أنها لم تستيقظ متأخرًا، فهي تستيقظ في مِعادٍ ثابتٍ حتى في الإجازات، فتحت هاتفها بحيرة لتتفاجأ من عقارب الساعة التي تدق الواحدة بعد الظُهر، حسنًا، يبدو أنها غفت أكثر من اللازم وأضاعت محاضرتها، لكن مهلًا، لماذا شقيقها بالمنزل الآن ؟ اليس من المُفترض أن يذهب إلى عمله ؟

-يلا يا ماما عايز افطر قبل ما اروح الشُغل

هكذا أردف مؤيد وهو يلتفت صوٌب والدته يسرية التي أتت من حُجرة الطعام ومعها صينية كبيرة مُغطاة بوعاءٍ معدني، وكانت فرح تراقب ما يحدث بريبة، فكيف سيذهب إلى العمل بعد الظُهر ؟ لوهلة ظنٌت أن هاتفها لا يعمل أو أنها لم ترى الساعة جيدًا لذلك فتحت هاتفها مجددًا وكانت إجابة حيرتها هي حيرة مضاعفة، فما زالت الساعة تُشير إلى الواحدة بعد الظُهر.

-استنى لما تيجي

هكذا كانت تقول يسرية وهي تضع الصينية على الطاولة ثم تلتفت صوٌب باب المنزل عقب الجرس الذي كان يصدح؛ فتحت يسرية الباب لتُقابلها لميس التي لبٌت دعوتها لتناول الفطور معهما، لم تكن تعرف أن لميس ستتناول الفطور معها في هذا

اليوم، رغم أنها تعرف أن والدتها أحيانًا ما تتصل بصديقتها وتُخبرها بالمجيء والجلوس معهما.

نفضت ما تبقى من حيرتها وهي تثب عن المقعد بوجهٍ بشوشٍ صافحت به صديقتها رغم الغصة التي تعتلي صدرها، لا زالت تتذكر معاذ وهو يفصح عن عشقه لها ويطعنها في ظهرها، ما زالت تتذكر عراكها الوهمي مع لميس حتى سقط كلاهما في تلك الحفرة ليقابلا مصيرهما، وهي لن تسمح لهذا الحُلم أن يتكرر، ولن تفقد صديقتها بسبب زيرٌ نساءٍ كمعاذ.

كامعت لميس بصدرٍ رحبٍ ربتت معه على ظهرها ثم ارتكنت إلى مضجعها تراقب والدتها وهي ترفع هذه الصينية الكبيرة وتضعها في مُنتصف الطاولة وسط مزحات شقيقها ونظرات لميس الشغوفة.

-أنا عملالكم بقى حتى أكلة تستاهل بوقكم

قالتها يسرية بفخرٍ ابتعدت بعده عن الطاولة لتُحضر الصحون، اتسعت بسمة فرح وهي تراقب حماس والدتها بعد طهيها لتلك الأكلة، فهي تعلم أن والدتها طاهية ماهرة.

-ممكن يا طنط أفتح الصينية ؟

هكذا سألت لميس بلهفة قابلتها يسرية ببسمة بشوشة وافقت معها:

-طبعًا يا حبيبتي إنتِ لسة بتسألي

صفقت لميس بحماسٍ وثبت معه عن المقعد لتقترب من هذا الوعاء المعدني حتى تزيحه وتكشف عمَ بداخل هذه الصينية، كان مؤيد يرمقها بلهفة وابتسامة واسعة، وفرح تطالع ما حوٌلها بشعورٍ من الدفيء يتخللها، هذا هو الدفء الذي تُريده، هذه هي حياتها التي أضحت تُحبها ولن تتذمر منها أبدًا، كانت بسمتها تُزين ثغرها وهي تتابع نظرات مؤيد المُتلهفة ولميس التي كان الحماس يكتنفها وهي ترفع الغطاء ... ترفعه ببطء وسط قهقهات الجميع حتى....

تسارعت نبضات فرح فجأة لتتلاشى بسمتها ويحل محلها علامات الذعر، فلم يكن في هذه الصينية سوى .... يدان مقطوعتان يُقطر منهما الدماء!!

تلاحقت أنفاسها بُرعبٍ وكادت الدموع تنسل من عينيها، ترى لميس تُصفق بيدها بحماسٍ ومؤيد يبتسم ابتسامة بدت شيطانية بالنسبة لها، ووالدتها ما زالت تثني على نفسها وتشاركهما هذا الضحك الذي بدا بالنسبة لفرح ... مُرعبًا.

ارتجف بدنها وهي تتدقق النظر بهذه اليدين، هذه الأصابع تعرفها جيدًا، هذه الشامة التي تتوٌسط باطن كفها ليست غريبة عليها، سرعان ما تدفقت الأفكار السيئة داخل رأسها وجعلتها أكثر ارتجافًا، تشعر بسائلٍ ساخنٍ يتقاطر على أقدامها، تشعر بوجعٍ عاد لينحر عظامها، رفعت ذراعيها ببطء عندما ازداد ألمها وشعرت أنه سيقتلها، وما هي سوى بضع ثوانٍ حتى أطلقت صرخة مدوٌية شقت عبير السماء وهي تراقب موٌضع يداها .... المقطوعتان!!

الفصل الثالث (المقبرة الملعونة)

شتانٌ بين عقلٍ ساهدٍ قضى نحبه في تكذيب الحقائق، وأوهام عابرة تطُلق سهامها وتجعلك صريعًا لا تعرف إن كان موٌتك حقيقيًا، أم أنه محض خيال....

أنفاسٌ متلاحقة تنطلق بصعوبة من جوٌفها، قطرات العرق لا زالت تنسل على جبهتها وهي تفتح عينيها مرة واحدة، ما زال الظلام يحاوطها، وما زالت عينا لميس أمامها تراقبها بقلق وتطمئن عليها بنظراتها الشغوفة، وضعت فرح يدها على صدرها تحاول التهدئة من ضرباته المتعالية، تقسم أنها رأت كل ما يحدث في منزلها وكأنه حقيقيًا، تقسم أنها رأت يداها المقطوعتان وضحكات أخيها ووالدتها وصديقتها الشامتة، تقسم أنها ظنٌت لوهلة أنها عادت إلى منزلها الدافيء الذي انقلب مرة واحدة بطريقة أصابتها بوغزاتٍ عليلة.

بقيت لفترة تحاول الاعتدال في جلستها تُهديء فؤادها المذعور وتتلفت حوٌلها بضياع، لا تزال في هذه الحُجرة المُعتمة المقيتة وهذه الُظلمة الموحشة.

-فرح .... إنتِ كوٌيسة ؟

أيقظتها لميس بهذا السؤال الخافت الذي آعادها إلى الحياة وجعلها تُحدق بجرحها وقدمها المربوطة، ترى الدماء تنبثق من جوارحها ووشاحها العزيز قد أصبح رقعة حمراء بالية، وضعت يدها على جرحها تحاول استشعار مدى قوٌته لتفاجئها هذه الدماء الجافة وشعور الخُدر الذي يسري بكيانها، تشعر بالألم الطفيف لكنها في نفس الوقت لا تشعر بقدمها أبدًا، فقط ترى هذه السحجات البنفسجية وتلك البقع السوداء ذات العروق النافرة.

عقدت حواجبها في ألمٍ لُطخ بجوانح القهرة وهي ترفع جسدها عن الأرض ثم تلتفت نحو لميس التي كانت تراقبها بعينين قلقتين وهناك خيطٌ من الدماء ينسل من جبهتها؛ صُعقت فرح من هذا الجرح الغائر الذي لم تراه مُسبقًا وظنٌت أن صديقتها تحاول إخفاء شعور الألم حتى لا تزيد من حدة المؤُقف:

-إيه الدم ده ؟

سألت فرح بذعرٍ جعل لميس ترتبك وترفع يدها موٌضع الجرح ثم تقول بنبرة هادئة متوترة:

-شـ...شكلي اتخبط واحنا بنجري

تلفتت فرح حولها حيث حقيبتها لتنتشلها وتعبث بمحتوياتها إلى أن أخرجت مجموعة من المحارم قامت بتجعيدهم وتقريبهم من جرح لميس لعلها بتلك الطريقة تساعدها على تطبيب جرحها، وكانت لميس تستقبل حركاتها بهدوء ثم ترفع يدها لتضعها على يد صديقتها لعلها تعاونها في تطبيب جرحها.

ما إن خفتت حدة الدماء حتى أبعدت فرح مجموعة المحارم وتركتهم على أرضية الحُفرة لتعبث مجددًا بالحقيبة حتى أخرجت قنينة مياه كانت معها بالجامعة، لم تكن تعرف متى ستأتي فرق الإنقاذ فأرادت أن تحافظ على مصادر الطعام والمياه حتى تبقى على قيٌد الحياة.

فتحت قنينة المياه وارتشفت رشفة واحدة آرادت من خلالها أن تُبلل ريقها الذي شعرت وكأنه صحراءٌ جرداءٌ عانى من ويلات التصحر والجفاف، فهي لم تشرب المياه ولم تذق الطعام ليومٍ كامل أو ربما أكثر، فهي لا تعلم مُنذ متى وهي غائبة عن الوعي.

قرٌبت قنينة المياه من لميس لعلها ترتشف القليل لكنها وجدت لميس ترفع يدها وتعزف عن الشرب متفوٌهة:

-مش عطشانة دلوقتي .... خلينا نحافظ على الماية

أومأت فرح باستحسانٍ ثم آعادت قنينة المياه وأخرجت علبة من الباسكويت لتأخذ منها واحدة فقط لأنها لا تملك طعامًا آخرًا، كانت تتناول هذه القطعة الصغيرة ببطء وتأني تستشعر مِذاق السُكر وتدعه يتغلغل بين خلجاتها ليمدها بالقليل من الطاقة.

مدٌت لميس يدها لتنتشلها عن الأرض وتبدأ السير معها في تلك الطُرقات المتداخلة لعلهما تعثران على منفذٍ للخروج غير هذا المنفذ الذي أضاعاه وهما يهربان من الجُرذان.

كان قلبها يزداد ارتعادًا كلما خطت خطوة داخل هذه الظُلمة تجوُّب بعينيها في كل مكانٍ لعلها تعثر على وميض الأمل، وكانت لميس تتقدم المسيرة تنزع الوشاح عن شعرها لتكشف عن خُصلاتها الثائرة وقطرات الندى التي تتغلغل من رقبتها بسبب حرارة الطقس، فرغم أنهما في أجواء شديدة البرودة، إلى أن هذه الحفرة التالدة لا تحمل ذرة هواءٍ واحدة.

صوُّت الهسيس لا زال يضرب آذانها، وتشعر أن لميس تتجاهله وتواصل السير كما تتجاهل كل ما حوُّلهما، ترى بعض الأطياف السوداء تتحرك أمامها بسرعة فتزيدها رهبة وانخلاجًا لكنها تُمني نفسها أنها مُجرد أوهامٍ ليس إلا، تتماسك فقط كلما رأت لميس أمامها يبدو على وجهها الصمود وهي تتحرك وتبحث عن مخرجٍ من هذه الهِوة.

أثناء سيرهما الضائع، وفي خِضم هذه الضائقة إذا يقطعهما فجأة صوُّت شهقة عالية أطلقتها فرح من جوُّفها وكادت تتبعها بصرخة مدوُّية تُشقق الجُدران من حدتها، تسارع فؤادها بهلعٍ وهي تضع يدها على ثغرها واليُّد الأخرى ترفعها بارتجافٍ نحو هذا الهيكل العظمي أمامها!!

كان هيكلًا عظميًا تتفرع الحشرات من ودقاته، وعظامه متآكلة عفا عليها الزمن، كان يحمل مصباحًا يدويًا عتيقًا تكاثرت عليه الأتربة، وجوُّفه مفتوُّحٌ بذعرٍ وقلق، وكأن لحظاته الأخيرة كانت أكثر لحظاته صعوبة.

تعالى صوُّت دقاتها وهي تُشير على هذا الهيكل حتى أتت لميس وجذبتها من ذراعها متفوُّهة:

-متركزيش في حاجة غير إننا نمشي من هنا

أومأت فرح بارتباكٍ وما زال عقلها يستعرض أمامها هذا الهيكل العظمي، تتخيُّل أن مصيرها سيضحى هكذا حينما تموت في تلك الحُفرة.

اشتدت قتامة الظلام فإرتأت فرح أن تفتح جوالها وتستخدمه كأداة للإنارة، فلميس قد أسقطت حقيبتها وهما يتعاركان وبالتالي بقيت حقيبتها بالأعلى، تمسكت فرح بلميس وهي تعرج بقدمها حتى أوصلتها لميس إلى حُجرة غريبة مُتدثرة بأحد الجوانب.

-تعالي ندخل يمكن نلاقي حاجة

قالتها لميس باقتراحٍ وهي تدفع فرح بتروٍ حتى دلفتا هذه الحُجرة المُعتمة، هذه الحُجرة التي اتضح فيما بعد، أنها مقبرة فرعونية!!

انسدلت خيوط الشمس على سفحة الأراضي ليضحى عُبُّها مصدر إلهام العديد من الرسامين، لكنه لم يضحى سوى مصدر يأسٍ وقلقٍ في هذا المنزل الدافيء الذي أضحى بين ليلة وضحاها لا يخلو من الأحزان والأوجاع.

يجلس مؤيد على طاولة الطعام لا يشعر أنه يُريد أن يتناول شقفة من الخُبز حتى، أصيبت والدته بالإعياء جراء قلقها وقلبها الذي انفطر على صغيرتها، بينما كان هو في عالمٍ آخر يستقبل سياط عقله الذي يُخبره أنه خذل والده ولم يستطيع المحافظة على شقيقته الوحيدة، كانت عيناه حمراوتان مصابتان بالأرق وبعض الهالات السوداء بدأت تُزين أسفل عينيه، فهو لم ينم ليلة البارحة ولا يشعر أنه سينام حتى تأتي صغيرته ويتأكد أنها بخير.

كان قد أبلغ الشُرطة باختفائها الذي دام ليومين كاملين كانوا أشبه بعامٍ كاملٍ، أحنى رأسه على الطاولة ليكوِّب جُمجمته بين كفيه يجاهد حتى يبقى ثابتًا من أجل والدته فقط، ومن أجل أن يستطيع العثور على شقيقته المفقودة، يريد فقط أن يعرف أين ذهبت، أين كانت في آخر أيامها، وما الذي حدث معها ؟؟ أهي مُختطفة أم ضائعة أم هاربة أم...

توُّقف عند هذه الخاطرة ليغرق في وحل الإنكار، لن يُصدق أحدهم إذا أخبره أنها قضت نحبها، سيظل متمسكًا بالأمل عازمًا على العثور عليها حتى ولو جاب العالم بأكمله.

قطع شروده صوُّت الباب التي أيقظه من غياهب أفكاره؛ جفف مؤيد لمحات الحُزن من عينيه وهو يثب ويفتح لهذا الزائر الذي لم يكن سوى النقيب طارق جلال الذي أخبره أنه سيبذل ما بوسعه حتى يعثر على شقيقته.

رحب به مؤيد بملامح فاترة ثم أدخله إلى المنزل وأجلسه على أريكة البهو متفوهًا:

-اتفضل يا حضرة الظابط .... معلش يعني المكان مكركب

قالها ببعض الحرج وهو يتابع الفوضى في المكان، فلا أحد قادرٌ على تنظيف المنزل وسط هذه المعمعة، وكان طارق متفهمًا لهذا الوضع وهو يرفع أنامله نحو مؤيد ليُخبره بعملية:

-لا ولا يهمك .... أنا جاي بس آخد كام معلومة عشان اعرف ألاقيها

وثب طارق عن المقعد يتلفت حوٌله ببعض الحرج حتى سأل:

-هو .... ممكن ادخل أوضتها ؟

كانت الكلمات تخرج من جوٌفه بصعوبة لأنه لا يعرف إن كان مؤيد شقيقها سيوافق على ادخال أحدهم حُجرة شقيقته حتى يعبث بمتعلقاتها الشخصية، وهذا ما كان يُريده طارق لعله يعثر على دليلٍ يساعده على معرفة أين اختفت.

أومأ مؤيد بعد فترة من التفكير وبدأ يتحرك قبالته صوٌب حُجرة فرح حتى يدلفها ويتأكد من عدم احتوائها على أي متعلقاتٍ شخصية لا يجب إظهارها أمام الغرباء، ما إن تأكد من هذا الأمر حتى أفسح المجال لطارق الذي وطأ الحُجرة بنظراتٍ حادة ثاقبة طفق يسأل معها:

-ممكن تقولي آخر مرة كلمتها كانت إمتى ؟

قطب مؤيد حاجبيه وهو يقول باستذكار:

-كلمتها يوم ما اختفت .... على اتناشر الضُهر كدة، كنت عايز أسألها هي هتخلص إمتى عشان أجيبها من الجامعة بس هي قالتلي إنها هتقعد مع صاحبتها شوية وبعدين هتيجي مواصلات

-هي دايمًا بتروٌح مواصلات ؟

هكذا سأل طارق باستفسارٍ آجابه مؤيد:

-أه ساعات .... وساعات لما بكون فاضي بروح أجيبها هي وصاحبتها

همهم طارق بتفهمٍ ثم واصل أسئلته:

-صاحبتها ؟ .... لميس ؟

أومأ مؤيد بسرعة وهو يُجيب:

-أيوة .... وهي كمان مُختفية، أنا متأكد إن هما الاتنين مع بعض

أخرج طارق دفتره وقلمه وشرع يدوِّن وهو يسأل:

-شكلها إيه صاحبتها دي ؟

توُّتر مؤيد وهو يشرح له صفات صديقة فرح بطريقة سطحية عابرة غفل معها عن الكثير من التفاصيل، فعلى الرغم من أنها تأتي دائمًا لتناول الفطور معهم وكثيرًا ما قام بتوِّصيلها لمنزلها وهو يأتي إلى الجامعة كي يأخذ شقيقته، إلا أنه لا يُركز أبدًا في تفاصيلها ويعاملها باحترامٍ وتقدير، فلماذا ليتأملها على أي حال ؟

أومأ طارق بتفهمٍ قبل أن يغلق دفتره الصغير ويضعه مُجددًا في جعبته، دلف إلى الحُجرة وبدأ يعبث بالفراش ذو الشرشف المترامي بعشوائية ومنامتها الملاقاة على الأرض وسط كوِّمة من الملابس المُتسخة.

-قولتلي كانت لابسة إيه يوم ما اختفت ؟

هكذا سأل وهو يبحث بين ملابسها فيُخبره مؤيد عمَّ كانت ترتديه ويواصل هو التسجيل في دفتره حتى أمسك دُمية صغيرة كانت ملقية في القمامة، دُمية قطنية تحمل شكل دبٍ أحمر اللون يعانق قلبًا أبيضًا كبيرًا كُتب عليه عبارة أحبِك باللغة الأعجمية:

-هي كانت بتحب الدباديب ؟

قطب مؤيد حاجبيه بغرابة وهو يرى هذه الدُمية التي يراها لأول مرة، فهو يعرف أن شقيقته لا تُحب الدُمى ودائمًا ما تعتبر أنها سيدة كبيرة لا تُفكر سوى في مستقبلها وحياتها، أو هذا ما كان يظنه.

-لأ .... مفتكرش إنها في مرة قالت إنها عايزة تشتري دبدوب ..... وحتى لو اشترت مش هترميه في الزبالة يعني

لاحت نظرات الشك على وجه طارق وعقله بدأ يُفسر سبب إلقاء هذه الدُمية بسلة المُهملات، وكان شكه يزداد حينما وجد بُقعة صفراء جافة تعتمر الوسادة التي رفعها

ببطء ظانًا بأنه سيرى جوابًا غراميًا أو رسالة مُشفرة لكنه لم يجد سوى سامعات الأذن.

-هو كان في حد في حياتها .... يعني كانت مخطوبة أو_

قطع مؤيد حديثه وقد احتدت عيناه في تلك اللحظة، فشقيقته بالطبع لم تكن على علاقة غير شرعية مع أحدهم:

-لا مكنتش .... فرح مُحترمة، ولا يُمكن تصاحب

طافت رجولته على اليابسة حتى كاد يزجر الضابط الذي يحاول الصاق هذه التُهم بشقيقته الشريفة، وكان طارق يكتفي فقط بإيماءة هادئة وهو يواصل السير داخل الحُجرة ويواصل معها أسئلته:

-مفيش أي أماكن كانت بتروحها ؟ .... يعني مكان غريب كدة بتحب تفضل فيه لوحدها

-لأ .... فرح مش بتروح غير كافيهات ومطاعم .... وبتروح قبر بابا لما تكون متضايقة

همهم طارق بتفهمٍ ثم واصل السير داخل الحُجرة وعقله يقوم بتجميع هذه الخيوط مع بعض أقوال أصدقائها الجامعيين، تذكر كلمات حارس البوابة الذي تعرف عليها وهي ترحل عن الجامعة في تمام الساعة الثانية عشر وعشر دقائق، تذكر كلمات صديقاتها وهن يُخبرنه أنها لم تكن فتاةً شريفة وكانت تصادق رجال الجامعة وتبادل بينهم، يعرف أن حديثهن ربما نابعٌ من الحقد والغيرة، لكنه برؤية متعلقاتها الشخصية، بات متيقنًا أن هناك أحدهم تربع على عرش قلبها وربما حطمها وكسرها، وربما أيضًا تسبب باختفائها.

-طب ويوم لما اختفت .... ملاحظتش عليها أي حاجة غريبة ؟

فكرٌ مؤيد في حديثه هنيهة وهو يتذكر هذا اليوم حتى قال:

-لأ .... كانت عادية ... هي أصلًا علطول بتكون ساكتة ومش بتتكلم معانا كتير

-مش يمكن يكون في حاجة مضايقاها

شُحبت ملامح مؤيد وبدأ العرق ينسل على جبهته وهو يقول بارتباكٍ جعل الشكوك تتكاثر بعقل طارق:

-لأ ... هيكون إيه يعني إللي مضايقها ؟ .... وبعدين فرح مش بتخبي عننا حاجة .... هي أه مش بتتكلم، بس لما بتوُقع في مشكلة بتقول علطول

أنهى الحديث بثقة حافظ معها على نظراته الحادة، وثقته بشقيقته رغم الشكوك التي ساورته بسبب نظرات طارق التي تُخبره أن فرح وقعت في معضلة كبيرة ربما تسببت بهروبها أو اختفائها أو ربما أذيتها لنفسها، وكان طارق يواصل جمع الخيوط ببعضها وهو يجوب الحُجرة حتى توُقف أمام مكتبها حيث كُتبها الدراسية وحاسوبها الموضوع أعلى الطاولة.

فتح الحاسوب لعله يعثر على المزيد من الأدلة لكنه يصطدم بكلمة المرور التي تُعيق عملية البحث، رفع نظراته صوُب مؤيد ليسأله:

-تعرف الباسوورد ؟

نفى مؤيد برأسه مما آصاب طارق بوميضٍ من خيبة الأمل، لكنه يُبدده فورًا وهو يُغلق الحاسوب ويضعه في حقيبته متفوهًا بعملية وتقرير:

-هاخده معايا القِسم ... ممكن الاقي فيه دليل على اختفائها .... ولو احتجت حاجة تانية هكلمك

أمسك حقيبة الحاسوب وبدأ يتحرك بها خارج الحُجرة أمام مؤيد الذي كان في حالة سكونٍ تامٍ يراقب الضابط وهو يترك الحُجرة ليقترب نحوه مستوُقفًا إياه بكلماته:

-طارق بيه

توُقف طارق عن السير ليلتفت إلى مؤيد الذي سأله:

-إنتو حققتو مع أهل لميس ؟

أومأ طارق إيجابًا وهو يقول:

-أه .... ميعرفوش حاجة بردو .... بس عمتها قالتلي لو عرفت حاجة هتقول ...

أنهى الحديث بتربيتة مؤدعة رحل معها من المنزل ليُطلق مؤيد زفرة راضية آعادت روّحه المسلوبة، حمدًا لله أن هذا الضابط لم يكشف الحقيقة، ولم يعرف ما فعلته شقيقته!!

سكون الليل كان يختلط مع قتامة هذه البُقعة ويجتمع مع أصوات الهسهسة ونبضات قلبيهما المتسارعة، تتحرك لميس بتؤدة داخل الحُجرة وخلفها فرح تستند على الجدار بسبب قدمها التي لم تعد تشعر بها، كانت تُشهر هاتفها وتُمرر ضوءه على الجُدران لتستطلع هذه النقوش الفرعونية، فكانت عبارة عن كلماتٍ هيروغليفية مع بعض الصوّر الرمزية التي ميّزت بينهم رسمة أحد الفراعنة وهو يرفع يده وقبالته عبدٌ قميء يجلس على ركبتيه بخضوع، وبمنتصف المِقبرة كان يقبع تابوتٌ عريضٌ من الخذف اقتربت فرح نحوه وقد تناست رهبة المؤقف وبدأت تطالعه بذهولٍ، حتى أنها تناست غُمتهما وظُنت أنها ستجدُ كنزًا هنا، لكن فجأة.

انتفض جسدها ما إن داهمها صوّت قهقهة طفولية كانت قريبة للغاية من أذنها؛ بدأت تتلفت حوّلها في ذعرٍ بحثًا عن مصدر الصوّت الذي جعل فؤادها ينبض بهلعٍ ولسانها يقول بتوتر:

-لـ...لميس ... خلينا نمشي ... أنا مش حاسة إني مستريحة

تلاحقت أنفاسها وهي تتحدث وقد ضاقت الهِوة وقلّ الهواء في تلك الحُجرة، حتى أنها شعرت ببوادر الاختناق.

أما لميس فكانت في عالمٍ آخرٍ تتقدم فيه صوّب رُكنٍ من الحجرة، تتحرك بخطواتٍ مُتهملة أوقفتها حينما وجدت هذا النصل الحاد مرتمٍ على الأطراف، ودون أن تنتبه إلى ما تقوله فرح، كانت تحني جذعها وتلتقط هذا النصل الذي علِمت فيما بعد ... أنه خِنجرٌ عتيق!!

-لما الفراعنة اتكلمو عن الخيانة .... كانو بيقولو إنه من الصفات الإجرامية .... يعني الخاين، كان عقابه الموت ....

كلماتٌ حكيمة علمية قالها رجلٌ وقوُر وهو يتحرك في قاعة واسعة بإحدى محاضرات كلية الآثار، وكان الطلاب أمامه يرمقونه بانتباه ويسجلوا ما يقوله في دفاترهم.

-بس لما نيجي نرجع لقصة قابيل وهابيل .... إيزيس وأوزيريس .... بنلاقي إن اللي بيتعاقب مبيكنش الطرف الخاين .... لأ وبنكتشف كمان إن الخاين هو اللي بيعاقب .... مش العكس

واصل العدو صوُب اللوحة لينتشل قلمه ويشرع بكتابة " قابيل وهابيل " بخطٍ عريض وجوارها " إيزيس وأوزيريس"

-يعني قابيل قتل هابيل عشان كان غيران منه .... وإيزيس قتل أوزيريس .... عشان بردو كان غيران منه ... وده بيخلينا ننتقل لنقطة تانية .... كانت من دوافع العقاب عند المصريين القُدماء .... ويمكن عند العالم كله .... وهي ... الغيرة

دوُنها بخطٍ عريض على اللوحة ليُطيل الطلاب التحديق بهذه الكلمة وقد تناسوا المعلومات الأثرية التي أتى هذا المُعلم لإلقاءها، فهو لا يريد فقط أن يشرح لهم مجموعة قصصٍ وأساطير وحقائق، يريدهم أن يعرفوا الدوافع خلف هذه الأساطير وهذه الحقائق:

-والغيرة هنا بقى مش قصدي الغيرة من حد عنده فلورز أكتر مني ولا البنات بتعبره وأنا لأ ...

قالها بمُزاحٍ جعل الطُلاب يقهقهون بخفة ثم يواصلوا متابعته وهو يتحدث بأهمية:

-أنا هنا بتكلم عن الغيرة إللي بتوُصل للقتل .... إللي بتتحوُل لسلاح ممكن يقتل أقرب حد ليه .... بسبب حاجة ...أو شخص

توُقف عن السير ليلتفت صوُب اللوحة الالكترونية التي عرضت صوُرة لخِنجرٍ قديمٍ يبدو من العصور الفرعونية، كانت عيون الطلاب تشاهد هذا الخنجر وتحاول جمع الأسئلة داخل عقلها ومعرفة لماذا يعرض الأستاذ هذا السلاح الحاد أمامهم، وما كاد عقلهم يُرهقهم بتلك الأسئلة حتى وجدوا المُعلم يُشير على هذا الخِنجر متفوُهًا:

-دي مش مُجرد سكينة عادية .... دا كانو بيسموه عند الفراعنة .... خنجر الانتقام

اتكأ على آخر كلماته ليُبرهن على أهمية حديثه، فما إن أدلى هذه الكلمات وبهذه الطريقة الحماسية حتى اشتعلت نظرات اللهفة بين الحضور وهم يراقبون معلمهم وهو يقترب نحوهم متفوٌهًا:

-خلوني احكلكم قصة الخنجر ده .... الحكاية بدأت لما ...

توٌالت بعض الصوٌر والبرديات أمامهم بينما كان المُعلم يشرح لهم أسطورة فرعونية أدت إلى صُنع هذا الخِنجر، يقصٌ عليهم قصة الأخوان، أنبو وباتا اللذان يعملان سوٌيًا في الزراعة حتى أتى هذا اليوم الذي فرٌق بينهما، اليوم الذي حاولت فيه زوٌجة أنبو إغواء باتا وسبر أغواره بسبب إعجابها به، لكن باتا عزف على السير خلف جاذبيتها وهددها بإخبار زوٌجها إذا تمادت، الأمر الذي جعل نيرانها تعتمر وتُخبر زوجها أن شقيقه باتا كان يحاول إغواءها والتعدي عليها.

صدق أنبو كلماتها الكاذبة التي غطتهم ببرائتها؛ قرر أن يُلقي القبض على شقيقه باتا ويعاقبه عمَ فعل، وعندما أدرك باتا أن مصيره سيؤول إلى الموت، قرر الهرب والاحتماء في وادي الأرز، استقر باتا في هذا الوادي وبنى له بيتًا من الطوٌب اللبن، تزوٌج كذلك من فتاةٌ حسناء، وكانت حياته مُستقرة وهادئة.

بحث أنبو عن شقيقه لأربع سنواتٍ متتالية انتهت بعثوره عليه وقتله انتقامًا لزوٌجته، تناسى شقيقه ورفيق دربه ليسقط صريعًا في قبضة الانتقام والغيرة، الغيرة التي جعلته يقتل شقيقه بدمٍ باردٍ ويترك فؤاده على شجرة الأرز.

انهارت زوجة باتا على زوٌجها وبحثت عن قلبه حتى وجدته مُعلقًا على شجرة الأرز؛ أخذت فؤاده ووضعته في ماءٍ باردٍ رافقه بعض الطلاسم والتحضيرات التي آعادت باتا إلى الحياة ولكن في شكل ثوٌر، وقتها، كان باتا مُضرجًا بالخُذلان لا يُريد سوى الانتقام من شقيقه وزوجته الوضيعة؛ ذهب إلى قصره وعيناه متقضتان بالشرار، كان مُتخفيًا في هيئة الثوٌر لكن مع ذلك أدركته زوٌجة أخيه وأمرت الحُراس بذبحه.

نفذ الحُراس أوامر زوّجة الفرعون وذبحوا باتا الثوّر في أرضٍ ممرعة، وعندما تساقطت دماء باتا نبتت شجرتين من الخشب الزان، ومع ذلك لم تنطفيء نيران الملكة التي أعماها الحِقد والغرور وآرادت أن تمحو أثر باتا كُلّيًا، فهو الذي رفضها وأحط من كرامتها.

أمرّت أنبو زوجها باقتلاع هاتين الشجرتين واستخدامهما في صُنع الأثاث، لكن أنبو قرر أن يستخدمهما في صناعة الخناجر والأسلحة بسبب متانة هذه الأخشاب والتي عندما تجتمع مع الحديد والنحاس ستخلق خِنجرًا يستطيع به قتل الأعداء، لكنه لم يكن يعرف أنه بذلك سيخلق لعنة تحلُّ عليه وعلى قصره، فما إن صنع هذا الخِنجر حتى تكالبت عليه الصِعاب.

خانه جميع حُراسه، وزوجته التي لطالما صدقها ودافع عنها، استخدمت هذا الخِنجر لتنهي حياته حتى ينتقل حُكم البلاد إلى ابنها_ ولي العهد_ وعندما توّلى ابنها العرش لم تُمحى هذه اللعنة، ولم تنتهي لعنة هذه المُقبرة التي دُفن بها .... الإله باتا وخنجره !!

أنهى الحديث بنبرة حكيمة توّقف معها أمام اللوح متفوّهًا:

-يًمكن الحكاية إللي قولتها تبقى مُجرد أسطورة .... لكن ده ميمنعش إن الغيرة أعمت قلوب ناس كتير .... لأ ده كمان غيًّرت التاريخ .... لأن من غير الغيرة ... مكنش الغرب هيطمعو ويستوّلو على الشرق الأوسط .... مكنش هيبقى فيه حروب استعمارية أو غزوات

رفع أحد الطُلاب يديه ليأذن له المُعلم بإدلاء سؤاله؛ وثب الطالب عن مقعده وهو يسأل بشغف:

-بس أنا سمعت يا دكتور إن دي مش اسطورة .... وإن مقبرة باتا موجودة فعلًا

رفع المُعلم كتفيه بجهلٍ قال معه:

-والله يا بني العلم عند الله .... ولو هي موجودة ... يبقى محدش لسة اكتشفها

-هي ممكن تبقى ملعونة ؟

هكذا سأل الطالب ليتوُقف المُعلم عن الشرح ويبقى غارقًا في هذا السؤال الذي لا يعثر له على الإجابة، فجميع الأساطير تُخبره أن هذه المقبرة تحمل روُح باتا التي تُريد القِصاص، لكنها في النهاية مُجرد أساطير ليس إلا، رغم أن عقله يُخبره أنها حقيقية:

-وارد جدًا تبقى ملعونة ... ويمكن عشان كدة محدش اكتشفها !!

-لميس ...

انتفضت لميس وهي تستمع إلى كلمات فرح التي كانت تتحدث عن قلبها المُنقبض وعدم رغبتها بالبقاء في هذا المكان، حسنًا، هي لا تريد البقاء في تلك الحُفرة لكنها لا تملك ملكة الاختيار.

قبضت جيدًا على الخِنجر وهي تلتفت صوُب فرح التي ما إن رأتها تحمل هذا الخِنجر حتى انقبضت أوزارها واتسعت حدقتيها في ذهولٍ سألت معه بذعر:

-إ...إيه ده ؟

لوُت لميس فمها بجهلٍ قالت معه:

-معرفش ... لقيته على الأرض

-طب يلا نمشي من هنا

هكذا أردفت فرح بسرعة وبقلبٍ مُلتاع جعل لميس تستجيب لها وتتحرك نحوها حتى....

صدح صوُت مُرتفع يبُس أقدامهما على الأرض وجعل أنفاسهما تتقلص حتى كادت تختفي تمامًا، صوُت بمثابة إعلان النهاية، إعلان وقوعهما في بؤرة الخطر التي ستقضي على حياتهما كُليًا، فما كان ذلك سوى صوُت الباب وهو يُغلق عليهما، ويسجنهما داخل هذه المقبرة .... الملعونة!!

الفصل الرابع (هلاوس)

بات العالم أشبه بصندوقٍ صغير اجتمعت بداخله جميع دوائر الخطر، لا مياه أو الطعام أو حتى الهواء، سينتهي بهما المطاف عالقتان في هذا الصندوق مع هذا التابوت المُكلل برائحة الموُت...

انقبضت أوزارهما وهما يستمعان إلى صوُت الباب وهو يُغلق مرة واحدة، لم يكونا على عِلمٍ بوجود بابٍ لهذه المقبرة من الأساس، ولا يعرفان كيف أغلق بهذه الطريقة، فما إن ابتعدت فرح عنه حتى صدح صوُته ليشق عبير السماء ويخترق فؤاديهما؛ ألقت لميس الخِنجر في هلعٍ لتهرع نحو فرح التي كانت في حالة هيستيرية وهي تطرق على الباب وتحاول فتحه بشتى الطُرق ولا يُجدي الأمر نفعًا، وكأنه غُلق بلاصقٍ قويٍ لا فكاك من بعده.

بدأت تركل الباب بقدمها السليمة، تصرخ حتى تحشرجت حنجرتها ثم تدفع الباب وتُكرر ما تفعله وكأن أحدهم سيأتي لنجدتها، لكنها لا تلقى سوى الصمت والخُذلان، لا تلقى سوى أطياف الموُت تلوح أمام أعينها.

انهارت فرح وهي تسقط على الأرض قبالة الباب تنفجر الدموع من حدقتيها كالينابيع، وكانت لميس قبالتها تكبح دموعها وهي تسقط على الأرض قبالة فرح، تحاول التربيت على ظهرها وتهدئة شهقاتها، فكانت فرح لا تتوُقف عن قول:

-هنموت .... هنموت هنا....

واصلت بكاءها بقهرٍ وضياعٍ وقد سلُمت الراية واستكانت إلى حقيقة موُتها البطيء في هذه المُقبرة، فأما تموت من الجوُع والعطش، أو الاختناق وربما تفقد عقلها وتوُدي بحياتها، وهي على شعرة من هذه الخطوة، فهي لم تعُد تتحمل، لم تعُد تتحمل هذه الأصوات وهذه الكوابيس التي لا تنتهي، ما يجعلها تتحمل هو وجود لميس بجوارها وملامحها الساكنة التي تُشعرها أنهما سيتحرران من هذا ويعودان سالمتين.

ارتمت فرح بأحضان لميس ما إن تملك منها البكاء وبقيت تبكي على صدرها لوقتٍ لا تعرفه، بينما كانت لميس لا تتوُقف عن تهدئة روُعها وعيناها تجولان صوُب هذا الخِنجر الذي ألقته على الأرض، تُريد أن تفهم سبب وجوده هنا، وكيف ستسخدمه **!؟**

انحدرت الشمس وبزغ القمر وتكرر الأمر أكثر من مرة في تلك الأيام المُجحفة، أيامٌ لا تخلو من البؤس والتيه، الحيرة والندم.

استكان جسد مؤيد على الأريكة بعد أن سيطر عليه النوُم وجعله ينام بهذه الطريقة العشوائية الثائرة وسط أكوام المحارم والوسائد والأواني المُتسخة، يشعر بحملٍ ثقيلٍ يجثم على صدره في تلك الأيام التي لم تكن تخلو من الشقاء، يتذكر والدته التي آصابها الإعياء وباتت تحتضر في فراشها لا تقول سوى كلمة " فرح " لعلها بتلك الطريقة تناديها حتى تودُعها قبل أن تنتقل روُحها إلى بارئها.

أيقظه صوُت الجرس الذي صدح عاليًا ليُذكره أنه لم يستطع الهرب من هذا العالم الذي يشعر أنه يتهدم، عائلته البسيطة تتحطم وهو لا يستطيع المساعدة، فقط يقف بعجزٍ أمام ما يحدث وكأن أطرافه مُكبلة.

فرك عينيه وهو يعتدل على الأريكة يُهندم قميصه الأسود الذي غفا به ثم يُمرر يده بين خُصلاته الثائرة لعله يستطيع ترتيبها قبل أن يعتقده الزائر مُجرد غوُل أتى لينصمي على منزلهم.

ما إن فتح الباب حتى داهمته تلك الابتسامة الهادئة النابعة من مُنى، زميلته بالعمل، والتي ينوُي خُطبتها ما إن تستقر أموره، كانت تحمل معها كيسًا بلاستيكيًا من البُرتقال وكيسًا آخرًا يحتوي على مجموعة من العصائر، فهي تعلم أن والدته مريضة، وتعلم أيضًا أنه أخذ إجازة من العمل حتى يقوم برعايتها.

-أخبارك إيه ؟

سألته ببسمة مرحة بادلها مؤيد بأخرى باهتة وهو يُجيبها:

-الحمد لله

توُترت مُنى قليلًا وهي تمد نحوه ما تحمله من مُشترياتٍ وهي تقول:

-إنت مش بترد ... فجيت عشان اطمن على طنط ... وعليك

أنهت الحديث بنبرة خافتة وُدت لو لم ينتبه إليها حتى لا يعتقد أنها تحفو وراءه، بينما كان هو في عالمٍ آخرٍ لا يفطن حديثها كليًا ويكتفي فقط بابتسامة واهنة قال معها وهو يحمل ما ابتعاته من مُشتريات:

-شُكرًا يا مُنى

هكذا أردف باختصارٍ ونبرة باهتة وُد معها لو يدعوها داخل المنزل لكنه لم يرغب في ذلك، ليس لأن منزله في حالة كارثية، بل لأن والدته مريضة وهو لن يقبل بقاءها معه في المنزل شبه وحيدين، وكانت مُنى تعرف ذلك جيُدًا وتعرف كم أنه يحترمها ولا يتخطُى حدوده معها حتى في أحلك حالاته، لكن شوُقها اللعين وعشقها الجارف له جعلاها تستقلا سيارتها لتأتيه المنزل بعد أن رفض الإجابة على اتصالاتها، حسنًا، هو لا يُجيب على أحدهم من الأساس وهذا ما يُقلقها.

-هي طنط عاملة إيه ؟

سألته بعد فترة وجيزة من الصمت ليحني رأسه بعجزٍ وهو يُجيبها:

-جاتلها الأزمة

-هي عندها القلب ؟

هكذا سألته بفضولٍ وسؤالٍ بديهيٍ آرادت من خلاله أن تتجاذب معه أطراف الحديث لعلها تستطيع سلبه من غُمته، لتجده يرفع رأسه نحوها وهو يُجيب بعينين غائرتين:

-أيوة عندها .... جالها بعد ما أختي ماتت....

وجهٌ شاحب أقرب إلى الموُتى، عظامٌ بارزة وكأنها على شعرة من التحُنط، لكن لا، فبين هذه العُظام، كانت هناك أنفاس تنبثق وتتعالى، أنفاسٌ آبت الاستسلام للموُت وسعُت للنجاة بكل الطُرق، مرُ أسبوعٌ على بقائهما في تلك المُقبرة لتزداد حالتهما

سوءًا، نفدت جميع الذخائر، وحتى قنينة المياه التي كانت تتجرع منها ببطء، نفدت ليلة البارحة حينما ارتشفت بضع قطرات تُبلل بهم ريقها الجاف.

قدمها المُصابة أصبحت ذات بُقعٍ سوٌداء وسحجاتٍ بنفسجية، ناهيك عن أنها لم تعُد تشعر بها أبدًا، بل أن وجعها بدأ ينتقل إلى ركبتيها فتُشدد من ربطة وشاحها حتى لا تنتقل الدماء السامة إلى باقي جسدها.

تحتضن فرح ركُبتيها كالجنين وخصلاتها الداكنة أصبحت ثائرة مُغطاة بالأتربة كثيابها بالضبط، لا تزال على جبهتها آثر هذه الضربة مع كدمات أخرى بدأت تنتشر على جسدها البارد الضعيف، تجاهد رأسها الثقيل الذي يُرغب بالاستسلام للنوم حتى لا يتعذب أكثر، فمعدتها تلتهم بعضها من الجوٌع، وحلقها جافٌ كمدينة قاحلة، حتى ريقها الذي كانت تبتلعه حتى لا تشعر بالعطش لم يعُد موجودًا.

أغلقت هاتفها حتى لا تنفد بطاريته التي أوشكت على النفاد، غرقت بعدها في عُتمة قاحلة ساعدت على ظهور هذه الأطياف، لكنها تُجاهد حتى لا تستمع إليهم، عيناها بدأتا تعتادان على هذه الظُلمة وبدت قادرة على تحديد مكوٌنات هذه المقبرة في خُضم الظلام، وكانت لميس تجلس جوارها بأحد أركان المُقبرة تحتضن جسدها كالجنين ورأسها ترتمي على الجدار بعد أن استسلمت للنوم.

أغلقت فرح عينيها ببطء لعلها تستطيع النوم كما تفعل لميس، لكنها تجد هذا الصوٌت يخترق مسامعها مرة أخرى، صوٌت طفلة صغيرة تُبكي بحرارة وأحيانًا تسمعها تضحك بطفولة، لكنها الآن، لا تستمع إلا إلى نحيبها وبكاءها الذي بدا عاليًا في هذه الفترة.

اتسعت حدقتي فرح في ذعرٍ وهي ترفع رأسها عن الجدار تصارع نبضات فؤادها المتعالية وهي تتلفت حوٌلها بحثًا عن مصدر النحيب، لكنها لا تجد شيئًا كما يحدث دائمًا فتُغلق عينيها وتواصل نوٌمها في تلك البُقعة المُقفرة، وما كُادت تُغلق عينيها مُجددًا حتى ارتفع صوٌت النحيب حتى بات قريبًا للغاية من أذنها!!
فتحت عينيها بذعرٍ إثر هذا الصوٌت الذي يشتد ولا تعرف سببه، لكنها هذه المرة، استطاعت أن تراها، استطاعت أن ترى طفلة صغيرة ذات ثوٌبٍ أبيضٍ تتكوٌم على الأرض تحتضن ثيابها ولا تتوٌقف عن النحيب.

تسارعت نبضات فرح وهي تثب عن الأرض ببطء وترددٍ، لا تُريد الاقتراب من هذه الصغيرة لكن قدماها تدفعانها، تُريدها أن تواجه مخوافها وتدُرك ما الذي تُريده هذه الصغيرة منها، هذا إن كانت موجودة من الأساس.

ارتفع صوُت البكاء وارتفع معه هذا الطنين الذي ينطلق من أحراش فرح، تعالت نبضات فؤادها وهي تثب أمام هذه الطفلة الصغيرة التي تُدثر وجهها بين ركبتيها وكأنها لا تُريد لأحدهم أن يراها وهي تُبكي، كانت تراقبها فرح بعينين جاحظتين وفؤادٌ ينبض من الهلع، ترفع يدها بترددٍ تُريد أن تتأكد إن كانت هذه الطفلة حقيقية أم أنها أيضًا من الأوهام، فهي لم تعُد تُصدق عينيها من كثرة ما خذلتها.

علقت فرح يدها في الهواء لا تقدر على لمس هذه الطُفلة الصغيرة، فهي قد لاحظت للتو صوُرة فوتوغرافية ملقية على الأرض لا تعرف من أين أتت، وما الذي تحمله هذه الصوُرة من أسرار.

راقبت خُصلات الطفلة السوداء المُنسدلة على جانبيها ببراءة ثم وجهُت بصرها نحو هذه الصوُرة، كانت صوُرة عائلية يعود زمن إلتقاطها إلى عشرة أعوامٍ ماضية تقريبًا، حملت فرح هذه الصوُرة عن الأرض تتفاجأ من وجودها، وتتفاجأ من قُدرتها على مسكها، هذا يعني أنها حقيقية، لكن لأول مرة لم تكن سعيدة من هذا الأمر، فما حملته هذه الصوُرة استطاع بجدارة أن ينحر عُنقها وهي على قيُد الحياة!!

تعالت نبضات فرح في هلع وهي ترمق تلك الصوُرة التي كانت بها طفلة صغيرة ذات تسعة أعوام تقف رفقة والدتها بعينين تحملان كمًا من الحِقد يكفي لإغراق العالم، وكان شقيقها البالغ وقتها الثالثة عشر، يقف خلفها وعلى وجهه بسمة هادئة تناسب هذه الصوُرة التي يتم التقاطها.

وما شلٌ حركتها أكثر، هو هذا الفرد الرابع الذي توُسط عائلتها الصغيرة، طفلة بريئة ذات بسمة هادئة تتمسك بيد والدتها بشعرها الأسوُد المُنسدل على كتفيها، طفلة تعرفها جيدًا، بل تعرفها لدرجة ظهورها أمامها!!

تسارعت نبضات قلبها في هلعٍ وهي تشعر باقتراب عقابها، تشعر بحِمل ثقيلٍ يجثم على صدرها، فهذه هي الطفلة التي تراها، هذه هي الطفلة التي....

توُقفت عن التفكير مرة واحدة ليزداد فؤادها هلعًا، ألقت بهذه الصوُرة على الأرض وبدأت ترفع عينيها ببُطء وتروٍّ وهي تتذكر أنها، أمام هذه الطفلة التي بالصورة، الطفلة التي ماتت مُنذ سنواتٍ طويلة!!

ارتجف بدنها وهي ترفع رأسها مرة واحدة وتتفاجأ من نظرات الطفلة القاتمة ذات العينين السوداوتين والوجة الشاحب، تتفاجأ من الدماء التي انسلت من شفتيها وجعلت صدرها يتصاعد في هلعٍ، خاصة بعد الكلمة التي بصقتها مرة واحدة:

-إهربي...

شهقة مدوُية أطلقتها فرح وهي تنتفض في جلستها، تتلفت حوٌلها في ذعرٍ وتتأكد أنها لا زالت في جوٌف الظلام، وأن هذه الطُفلة لم تكُن سوى جُزءٌ من كوابيسها التي ازدادت في هذا المكان، وضعت يدها على صدرها لعلها تُهديء من نبضاته المتسارعة حتى لا تفقد صوٌابها، يكفيها الشعور بالجوع والعطش، لا تُريد أن تشعر بالجنون أيضًا.

لاحظت لميس انتفاضتها لكنها لم تتحرك ساكنًا، فقط تكتفي بكلماتٍ جامدة خرجت من جوٌفها دون أن تعُير الأخرى انتباهًا:

-متخافيش يا فرح .... ده مُجرد كابوس ....مش أي حاجة تصدقيها

آدارت وجهها ببطء صوٌب فرح حتى اتسعت حدقة الأخرى في ذَعر، فؤادها قد توٌقف عن النبض في تلك اللحظة وهي ترى لميس بدماءٍ تنسل على جبهتها ومن .... عينيها.

أطلقت فرح صرخة هيستيرية وهي تنتفض من مكانها تتحرك بلوعة حوٌلها وجسدها لا يتوٌقف عن الارتجاف، لم تعُد تتحمل هذه الأمور، تقسم أنها تكاد تفقد حياتها في مرة من المرات بسبب هذا العذاب.

لم تكن تتوٌقف عن الصُراخ والبكاء حتى آقافت لميس من نوٌمها واقتربت نحوها لتُربت على كتفها وتُهدئها، لا زالت فرح تتذكر نظراتها الدامية المُرعبة فتُبعدها عنها وتواصل صراخها وبكاءها، تُريد في هذه اللحظة أن تفقد روحها حتى تتخلص من هذا الكابوس الذي تحياه.

استطاعت لميس أن تحجم حركاتها الهستيرية وتجعلها مُستكينة على صدرها تفسح المجال لحدقاتها بالانفجار واخراج ما تعتمله من دموع، وكانت الأخرى تُهدهدها كطفلتها الصغيرة التي تخشى الليالي الرعدية.

-أنا شوفتها ... أنا ... أنا بشوفها والله بشوفها ... وبسمع ... وبسمع حاجات...

بقيت تبصق هذه الكلمات غير المُرتبة حتى أفضت ما بجعبتها وابتعدت عن كنِف لميس لتُكفكف دموعها وتستنشق مخاطها لعلها تستطيع المحافظة على ثباتها، بينما كانت الأخرى تجلس بجوارها وعلى ملامحها الهدوء والاستسلام وهي تقول:

-إنتِ مأكلتيش ولا شربتي بقالِك كتير ... فأكيد مُرهقة

حاولت إخبارها أن ما تراه هو نتاجٌ للإرهاق ليس إلا وآرادت فرح تصديقها رغم عقلها الذي لا يتوُقف عن تعذيبها.

بقيت في حالة من السكون والصمت حتى هدأت نبرتها تمامًا وبدأت تلتفت صوُب صديقتها التي تتعجب ثباتها:

-هو إنتِ كمان بتسمعي حاجات ؟

سألتها بفضول لتجد لميس غارقة في حالة من الصمت تُهدل كتفيها لأسفل ونظرات القهر تنبعث من عينيها وهي تقول:

-أيوة بسمع .... بسمع صوُت جوز عمتي وهو داخل عليا الأوضة .... بسمعه وهو بيشتمني ويفكرني دايمًا إني يتيمة....

ترقرقت الدموع على وجنتيها وهي تواصل بنبرة مبحوحة جعلت فرح ترمقها بضيقٍ على حالها:

-بـ... بحس بكل لمسة حقيرة مسكت جسمي .... وكل علقة نزلت عليا .... بسمع صريخي وعياطي إللي محدش كان بيسمعهم غيري

انهمرت الدموع على عينيها أكثر حتى كانت على شفا جرفٍ من الانفجار أمام فرح التي تحجرت دموعها وهي تراقب صديقتها وما تلاقيه من العذاب في حياتها

الطبيعية، وهي التي ظنُّت أنها صديقتها، لم تستطع انتشالها من هذا العذاب، بل زادته أطنانًا بأنانيتها وغيرتها.

-إنتِ عارفة أنا ليه مش مضايقة من وجودنا هنا ؟

لم تُجبها فرح فواصلت حديثها:

-عشان أنا كُل يوم كُنت بدعي ربنا إنه ياخدني ويخلصني من إللي أنا فيه .... وربنا شكله استجاب لدعائي

أنهت الحديث ببسمة مقهورة جعلت فرح تراقبها بصمت وقد شعرت أن جسدها تيبس ولم تعُد تستطيع الحركة، فهي ليست من النوُّع المواسي، ولا تذكر أنها واست أحدهم أو آزرته ذات مرة، فدائمًا ما كانت تسعى للفت الانتباه حتى تضحى هي محوُّر الكوُّن ويعمل الجميع على مؤازرتها، لكن كلمات لميس، أوقضت غصة في حلقها، آرادت أن ترتمي في أحضانها وتُخبرها أن هذا الكابوس سينتهي وسيعودا سويًا إلى منزلهما، آرادت أن تخبرها أنها ستساعدها حالما يرحلان من هنا، وستعمل على إنقاذها من براثن زوُّج عمتها مهما كان الثمن، هذا ما سعَت إليه وما تُريد الخلاص من أجله، فصديقتها لم تستحق هذه المعاملة الصلفة التي عاملتها بها في آخر أيامهما على سطح الأرض.

كفكفت لميس دموعها لتعوُّد إلى ثباتها وهي ترفع رأسها نحو فرح حتى تسألها بفضولٍ سعت من خلاله على تبديد كآبة حديثها:

-بتسمعي إيه ؟

ازدردت فرح ريقها وهي تطالع صديقتها وتُجيبها بنبرة متوُّترة:

-بسمع واحدة بتقولي .... إهربي

قالتها بصدق لم يجعل لميس تُغير من ملامحها الجامدة، فقط تومىء رأسها وهي تقول بصدق:

-أنا كمان بسمع حد بيقولي حاجة

اعتدلت فرح في جلستها لتنتبه إلى حديث لميس الذي أكد لها أنها لا تتوٌهم، هناك شيءٌ في هذا المكان يجعلها ترى هذه الأشياء وتسمع هذه الأصوات، وربما أحست لميس بهذا الأمر وقررت إخفاءه حتى لا تزيد من حدة الموٌقف.

-بيقولِك إيه ؟

هكذا سألت فرح بفضولٍ جعل لميس تطالعها بعينين غائرتين ونظرة غامضة حدقت فيهم بفرح وهي تُجيبها:

-إقتليها!!

الفصل الخامس (أصبَحت جثة)

كم هي غريبة هذه الحياة، نأتي إليها بعد ساعاتٍ وشهور، ونرحل منها في أقل من لحظات...

تخضب جسدها وهي تستمع إلى تلك الكلمات التي تقولها لميس، كلماتٌ أوقدت بداخلها نيرانٌ هاجرة بدأت تلتهم أحراشها، جسدها قد تيبس في موٌضعه والرهبة بدأت تكتنفها وتحيط بعالمها، نظرات لميس الغامضة التي اجتمعت مع كلماتها كادت تجعلها تتيقن أنها ستُقتل على يد صديقتها، وكأن لميس تُخبرها ما الذي تنوّي فعله انتقامًا لمَ فعلته فرح وتسبب بوٌقوعهما في مكانٍ كهذا.

بقيتٌ في حالة من الصمت والرهبة، تُحدق بلميس بعينين جاحظتين ولسانٌ قد توٌقف عن الحِراك، وما هي إلا بُرهة من الوقت حتى وجدت لميس تُقهقه بخفة أحنت معها رأسها وهي تقول باطمئنان كانت تسخر معه على ردة فعل فرح:

-متقلقيش ... مش هعمل زي الفيلم

تذكرت فرح هذا الفيلم الذي كانت تشاهده صديقتها في الجامعة وبدأت تربط ما بينه وبين ما يحدث الآن، فهي كذلك تتضوٌر جوٌعًا، بل أنها من كثرة الجوٌع باتت تُفكر بالتهام الحشرات والجرذان وربما ... حسنًا لا يجب أن تُفكر في الاحتمال الأخير رغم أنها تكاد تفقد صوٌابها من كثرة الجوع والإرهاق.

أسبلت فرح بعينيها في محاولة جاهدة لنبذ أفكارها والغرق مجددًا في مُستنقع الذكريات، فإن كانت هذه لحظتها الأخيرة، فعليها أن تفصح عن الحقيقة وتعترف بذنبها، تعترف بأنها ارتكبت خطئًا كبيرًا، وربما جريمة أيضًا.

-أنا عرفت مين البنت إللي بشوفها

هكذا اردفت بصوٌتٍ خافتٍ جعل لميس تنتبه إليها وتلاحظ نظراتها الغائرة الخالية من معاني الحياة، بل أنها مُحملة بما يجيش به العالم من ندم وحسرة.

-أختي...

هكذا قالت باختصارٍ حركت معه رأسها جهة اليمين وهي تتحدى فؤادها بكلماتها الصائبة:

-أختي إللي أناا ..... قتلتها!!

كانت تخرج الكلمات من جوٍّفها كسكاكين تنحر أحراشها وتُمزق أعضائها الداخلية، حقيقة لطالما هربت منها رغم أنها لا تعرف إن كانت بالفعل مذنبة أم أنه مُجرد خطيء اقترفته وأخفته عن الجميع، فحتى والدتها لا تعرف الحقيقة، لا تعرف أنها قتلت شقيقتها بسبب غيرة اعتمرت بأساريرها وأعمت عينيها.

انبثقت الدموع الحارقة من عينيها وهي تتذكر ما حدث وتحكي للميس التي كانت في حالة من الصدمة، لا تتخيٌل أن صديقتها مُجرد مُجرمة، بل وقتلت طفلة بالتاسعة من عُمرها!!

عادت فرح إلى ذكرياتها السوٌداء، حينما كانت طفلة بالسابعة من عُمرها، تتذكر ذاك اليوم حينما كانت تقطن مع عائلتها البسيطة في منزلٍ كبير بأحد أحياء مِصر الجديدة، تتذكر هذا اليوم الذي آتاهم فيه خبر وفاة أبيها، رب الأسرة وحاميها، تتذكر الأطياف السوداء التي تجوب المنزل ذهابًا وإيابًا، فناجين القهوة التي تُقدم إلى المعازيم فتتشدق بدموعهم وحسرتهم، والدتها التي بكت حتى انتفخت عينيها وتوٌرمت أهدابها، حتى شقيقها الذي بُهتت معاني وجهه وأضحى مسئولًا عن هذه الأسرة الصغيرة، الأسرة التي تغيٌر حالها بين ليلة وضحاها.

وطأت هذه السيدة منزلهم الدافيء لتغرقه بسُمها ومُكرها، كانت تثور وتجول وتُخرج مجموعة من الأوراق التي أثبتت زوٌاجها من أبيها وأن هذا المنزل الكبير أضحى من حقها وحق ابنتها، ابنتها البالغة من العُمر سبعة أعوام، ذات الشعر الأسود المُسترسل والعينان الكحيلتان، كانت تختبيء خلف والدتها برهبة حينما وطأتا المنزل لتعثيا فيه الفساد.

-البيت ده ليا فيه أنا وبنتي زي ما ليكم بالظبط .... وهنقعد هنا غصب عن عينكم .... ولو مش عجبك يا عنيا الباب يفوٌت جمل

هكذا كانت تقول زوٌجة والدها أمام يُسرية _والدتها الحبيبة_التي كانت في حالة من الُصدمة، لا تُصدق أن زوٌجها الذي إئتمنته على حياتها وأولادها يضحى خائنًا تزوٌج

من وراءها، لا تنكر أنها أحيانًا كان ينتابها الشك اتجاهه لكنها لطالما كذبّت شكوكها وقالت أنها مجرد أوهامٍ ليس إلا.

انهارت والدتها في هذا اليوم وبقيت حبيسة حُجرتها تبكي حتى الصباح، وكانت فرح الصغيرة تحترق حقدًا وغلًا بسبب هذه السيدة التي دمّرت والدتها، ولأنها تعلم أن والدتها لا تملك علاقة جيدة بعائلتها، فلم يكن لهم منزلًا آخرًا، كانوا مجبورون على المبيت في منزلٍ واحدٍ مع زوّجة أبيها وابنتها المسماة بوُرد.

تركت فرح حُجرة والدتها والمراجل تغلي بداخلها، اندفعت صوُب حُجرة مؤيد شقيقها الذي كان وقتها بالحادي عشر من العُمر، وجدته يجلس على الفِراش بملامح باهتة يبدو وكأنه يحمل العالم على أكتافه، كان ذلك قبل أن تأتي هي وتجلس على فراشه تقول بنبرة طفولية غشاها الغضب:

-مامي بتعيّط .... بتعيّط بسبب السِت دي

اعتدل مؤيد على فراشه وأضحى موُاليًا لها وهو يقول بقلة حيلة:

-عارف .... بس هنعمل إيه ؟

برقت عيناها بوُميضٍ من الإصرار وهي تقول:

-لازم نخليهم يمشو....

وهكذا بدأت خُطتها، بدأت خُطتها للانتقام لوالدتها، سعَت طوُال هذه الفترة لسبر أغوار زوّجة أبيها ومضايقة ابنتها، فكانت تذهب إلى حُجرتهما وتُمزق ثيابهما وتُحطم ألعاب ورد بغلٍ دفين، تفعل ذلك وهي تتذكر نظرات والدتها الباكية وحسرتها طوال اليوم.

كانت ورد شقيقتها طفلة هادئة لا تُصدر أي جلبة أو ضجيجًا، خجولة لدرجة أنها تحني رأسها كلما تقابلت عينيها مع يسرية أو أي منهما، وكان جمالها آخاذًا، تحمل من معاني البراءة واللطافة ما يجعل المُتحجر يُفتن ببرائتها وعيناها الواسعتان الكحيلتان، حتى أن يُسرية كانت تعاملها برقة ولا تضايقها أبدًا، أو ربما تُقلل تعاملها معها ومع والدتها حتى لا تتعارك معهما.

وفي يومٍ من الأيام، آرادت فرح أن تُنفس عن غضبها بارتكابها أحد الألاعيب، كان هذا يوم عيد ميلادها الثامن، وكانت والدتها قد أعدت لها كعكة كبيرة وأقامت لها حفلًا بسيطًا دعت فيه جميع أصدقائها، لم تشأ زوُجة أبيها أن تحضر هذا الحفل وكانت تنوي أن تأخذ ابنتها لقضاء اليوم مع أصدقائها، لكن فرح ألحت على ورد بمشاركتهما الاحتفال، ادُّعت أنها شقيقتها التي تُحبها وتُريدها أن تقضي معها يومًا لطيفًا، ولأن ورد لا تملك الكثير من الأصدقاء، أحبت هذا الشعور وألحت على والدتها حتى تتركها لتحتفل معهم.

وعندما زخر المنزل بجحافل من الأطفال بمُختلف أعمارهم، بدأت خطة فرح التي اتفقت فيها مع أصدقاءها وأخبرتهن أن ورد فتاة سيئة ضايقت والدتها، الأمر الذي جعل أصدقاءها يقذفنها ببقايا الطعام ويسخرن من هيئتها ثم يلتقطن لها بعض الصوُر التي أظهرتها في حالة مزرية.

تعالى صوُت قهقهات الأطفال وهم يشيرون على ورد ويضحكون على هيئتها مما جعل قلبها يتحطم؛ تركت الحفل وأغلقت على نفسها الحُجرة ثم اجهشت بالبكاء حتى ارتفع صوُت بكاءها، وكانت فرح في تلك اللحظة تشعر أنها انتقمت لوالدتها وأن زوُجة أبيها سترحل من هذا المنزل بعد أن ضايقت ابنتها، لكن ما حدث كان عكس ما توُقعت تمامًا.

-إيه إللي إنتِ عملتيه ده ؟ .... وكمان قاعدة بتضحكي!!

بصقت والدتها هذه الكلمات الحادة بوُجه فرح لتعاقبها عمَ فعلت، فهي تعلم أن فرح هي من تسببت في هذا.

لُجمت فرح مكانها وهي تستقبل توُبيخ والدتها وهذه العينان الناريتان اللتان جعلتاها تتخشب على الأرض ولا تقدر على الحديث، تُريد أن تُخبرها أنها تفعل ذلك لأجلها لكن والدتها لا تسمح لها وتواصل أوامرها بحدة:

-يلا روحي اعتذرلها دلوقتي ... يإما مفيش عيد ميلاد تاني

أنهت الحديث بلكنة آمرة جعلت شماتة فرح تتلاشى ويحل محلها انكسارًا يتحوُل تدريجيًا إلى غلٍ عميق، بقيت مُتيبسة على الأرض لا تقدر على تنفيذ ما تقوله والدتها، تشعر بأن كرامتها ستتحطم حينما تعتذر لوُرد وتطلب سماحها.

عندما طالت فترة صمتها؛ زاد غضب يُسرية وأخبرت الجميع أن الحفل قد انتهى وكانت نظراتها الغاضبة بمثابة إعلان عن عِقاب جديدٌ سيُصيب فرح بعد قليل، فكان فؤادها يرتعد كلما وجدت عدد الحضور يتناقص.

-هو أنا مش قولت تروحي تعتذرلها ؟

آعادت والدتها حديثها الحاد الغاضب مما جعل الدموع تترقرق من عيناي فرح، تشعر بالظلم لأنها كانت تساعد والدتها ووالدتها تعاملها بهذه الحُدة وتُحيطها بإطار المعاصي، كانت ترفع عيناها الباكيتان صوُب والدتها ثم تخفضهما في قهرٍ تحركت معه صوُب حُجرتها وقدماها تضربان على الأرض بغلٍ وغضب، تتجاهل صرخات والدتها المتوُعدة وتهديداتها وتواصل العدو صوُب حُجرتها لتتخطى مؤيد الذي كان يراقب ما يحدث في صمت، لا يعرف أي طريقٍ يتخذ، فهو أيضًا كان يساعد فرح على إيذاء زوجة أبيه وابنتها، رغم أنه يعلم أن فرح قد تمادت قليلًا هذه المرة.

مرٌ هذا اليوم كما يمُر غيره، استطاعت والدتها أن تسترضي ورد وتبتاع لها الحلوى اعتذارًا لها عمَ تسببت به ابنتها، فهي لن ترضى بالظُلم أبدًا، ولن تقبل أن تتأذى طفلة صغيرة بسبب ما اقترفه أبيها.

وكانت فرح تشيط من الغضب كلما رأت والدتها تبتسم لورد وتعاملها بلين، تشعر أن ورد تسرق والدتها بهدوئها وبرائتها ومثاليتها، تشعر أن والدتها باتت تعاملها بجفاءٍ منذ أتت هذه اللعينة إلى منزلهم.

تمُر الأيام بعدها ويأتيهم هذا الخبر الذي غيُر مِجرى الأحداث كُليًا، أصيبت أمينة_زوجة أبيها_بمرضٍ خطيرٍ جعلها طريحة الفِراش تصارع الموت، تتذكر والدتها التي كانت تعتني بها وكأنها صديقتها، نست العداوة بينهما وكانت تُعد لها الطعام وتساعدها على تناوله وأخذ الدواء رغم أن أمينة لم تكن تعامل والدتها جيدًا، بل كانت امرأة في جسد حيُة_أو هذا ما ظنته فرح_ لكن والدتها لا تحمل أي خُصلة من خِصال الأفاعي، بل كانت طيبة، رقيقة القلب وعطوفة.

اهتمت بوُرد جيدًا في هذه الفترة كما اهتمت بوالدتها، فقد كانت ورد في تلك اللحظة في حالة متدهورة، تزداد انطوائيتها وابتعادها عن الجميع، تزداد عليها عوالم

العبوس خوفًا على والدتها ومن تبقى لها من عائلتها، يبقى الوضع هكذا حتى أتى هذا اليوم المنشود، يوم وفاة أمينة.

عزاءً ثانيًا كان يضج في أركان المنزل، ملابس سوداء تتناقل يمينًا ويسارًا تنعي وفاة هذه السيدة التي كانت ذات أفضالٍ كثيرة، فكان لها العديد من الأصدقاء والصديقات، والقليل من الآقارب والمعارف، انزوٌت ورد في حجرة والدتها تتقوّس في أحد الأركان تدفن وجهها بين رُكبتيها وهي تجحش بالبكاء، لا تُصدق أن والدتها تركتها وحيدة، لا تُصدق أنها ستبقى في هذا المكان الذي ما زال غريبًا بالنسبة لها.

كانت فرح تتابعها من خارج الحُجرة تشعر بالحُزن من أجلها والسعادة من أجل التُخلص من زوجة أبيها، فهي ما زالت تعتقد أنهما دمرا حياتهما البسيطة.

توٌارت خلف الستائر حينما لاحظت والدتها تقترب من الحُجرة التي تجلس ورد بداخلها حتى تطمئن عليها، تجدها تجلس على ركبتيها قبالة ورد ترفع وجهها الباكي وتُربت على خُصلاتها الرطبة.

-أنا عايزة ماما ... عايزة ماما...

كانت ورد تقول هذه الكلمات بين دموعها الواهنة فتتلقفها يُسرية وتدفنها داخل صدرها، تُمسد على خُصلاتها برقة وتُخبرها أن والدتها في مكانٍ أفضل وأنها ستعاملها كأبنائها وأنها تُحبها وهكذا دواليك، وفرح تستمع من الجهة الأخرى بقلبٍ يشطاط من الغيرة، ها هي ستربح بأحضان والدتها وتسرقه منها، وهي لن تقبل بهذا أبدًا!!

تغيٌرت الأمور في الأيام التي تلت وفاة أمينة، باتت يسرية أكثر حنانًا مع ورد، تنام بجوارها على الفُراش وتحكي لها الحكايات حتى تنام، وعندما تُخبر فرح أن تشاركهما، ترفض الأخرى وتتعلل بالعديد من الأمور، فقط حتى لا ترى نظرات والدتها الحنونة وتزداد غيرتها.

كان شقيقها يخطو أولى خطواته نحو مرحلة المراهقة، لم تعد تعنيه هذه الأمور وبات يقضي أيامه بين الكُتب الدراسية ومع رفاقه، حتى أنه يعامل ورد كشقيقته ولا ينبذها كما كانت تُخبره فرح أن يفعل.

كانت تعلم يُسرية أن حالة ورد النفسية لم تكن جيِّدة بسبب وفاة والدتها، لذلك عمِلت على إخراجها من هذه الحالة بشتى الطُرق، تبتاع لها ما يحلو لها من الحلوى، تطهو لها أفضل الطعام وتداعبها طوال الوقت، لا تريدها أن تحزن أو تبتئس، فهي ما زالت صغيرة على هذه الأمور، كما أنها مع الأيام بدأت تتعلق بها وتراها كإبنتها التي لم تنجبها، فكانت ورد بلطافتها وهدوئها منبع جاذبية بالنسبة ليُسرية، إضافة إلى ذلك أنها كانت طفلة ذكية متفوِّقة في دراستها، أي أنها طفلة مثالية بكل ما تحمله من كلمة، الأمر الذي جعل غيرة فرح تزداد يومًا بعد يوم، باتت تشعر أن حياتها عبارة عن منافسة وهمية، لا تفعل شيئًا سوى تحدي ورد حتى تنتصر عليها.

تسعى للمذاكرة بجُهدٍ حتى تأتي بعلاماتٍ جيدة، تحاول أن تجذب انتباه والدتها بشتى الطُرق لكنها تجد ورد كالعلكة تخرق أنفها في جميع الأمور وتثبت دائمًا أنها طفلة مثالية.

تذكر أنها دلفت المنزل ذات يوم بمُجسمٍ صغيرٍ صنعته بالمدرسة، كانت تُريه لوالدتها فتكامعها وتُقبلها وتخبرها كم أنها طفلة موُهوبة، لكنها في نفس اللحظة، تجد ورد ومعها مُجسمٌ أكبرٌ كانت قد صنعته في نفس اليوم_نظرًا لأنهما بنفس العام الدراسي وبنفس المدرسة أيضًا._

كان المُجسم الخاص بوُرد أكبر حجمًا وأكثر دقة واحترافية، عكس مُجسمها الصغير بدائيٌ الصُنع، ما زالت تتذكر ملامح والدتها المبهورة التي كانت حقيقية، ما زالت تتذكر والدتها التي عانقت ورد بحرارة وأخبرتها أنها ستضحى فنانة كبيرة وأن لها مُستقبلٌ مُشرق، وهي التي لم تحظى بهذه الكلمات!!

اشطاطت فرح من الغضب وأخذت مُجسمها لتُلقيه بحاوية القمامة داخل حُجرتها، تثور وتجول داخل الحُجرة بنظراتٍ غاضبة ودموعٌ مُتحجرة، لم تعُد تطيق هذا التحدي غيُر المتكافيء، لم تعُد تتحمل هذه الطفلة المثالية التي تسرق والدتها وتُظهرها كفتاةٌ قميئة، كانت تبكي طوال اليوم على فراشها وحينما تدلف والدتها لتطمئن عليها، تدَّعي أنها جيدة وأنه لا يوجد ما يُضايقها، حتى أن ورد حاولت اجتذابها واللعب معها لكنها تنبذها في كُل مرة، فهي لم تعُد تطيق رؤيتها، ولم تعُد تتحمل وجودها.

وفي يومٍ من الأيام، وفي ليلة حالكة من ليالي الخريف، كان الجيران يقيمون احتفالًا صغيرًا بحديقة البناية، كان الاحتفال بمناسبة نجاح إحدى الجارات بالثانوية العامة، وكان هذا اليوم حُلمًا جميلًا انقلب إلى كابوسٍ مُجحف لهم.

تتجوَّل فرح داخل المنزل بعد أن فرغ من أصحابه وبات خاليًا، كانت النيران تعتمر بداخلها تُريد إطفائها بأية طريقة، تُريد أن تضرب ضربتها القاضية وتتخلص من تلك اللعينة التي اقتحمت حياتهم، أخبرها عقلها الصغير أنها إذا تخلصت من أشياء ورد، ستتحطم حياتها وستطلب الرحيل من هذا المنزل، لذلك آرادت أن تُدمر أشيائها دمارًا لا صلاح من بعده.

اشتعلت عيناها بوميضٍ من الغلّ والنيران وهي تدلف الحُجرة بخطواتٍ هادئة لا يُصدر منها صوتًا، كانت حُجرة واسعة ذات مِرحاضٍ مُلحقٌ بها، فهذه هي الحُجرة التي بقيت فيها زوجة أبيها أيضًا.

أحنت فرح جذعها وهي تلتقط الأشياء عن الأرض وتضعهم داخل صندوقٍ خشبيٍ كبيرٍ كان يُستخدم لوَضع الملابس، لكنها ملأته بالملابس والكُتب الدراسية والكثير من ألعاب ورد، بل جميع ألعابها ومُتعلقاتها، ما إن تأكدت من امتلاء الصندوق ومن اقتراب الأشياء من بعضها، قررت أن تُخرج عُلبة الكبريت من جعبتها وتنتهي من هذا الأمر، ستحرق هذه الأشياء حتى تتلاشى وتتحوَّل إلى رماد، ولن تستطيع ورد أن تتحمل فستُطالب بالرحيل عن هذا المنزل، هذا ما جال بخاطرها وهي تُخرج عوَّد الثُقاب وتُمرره على الكبريت حتى اشتعل.

كانت وقتها بالتاسعة من العُمر وهي ترمق عوَّد الثقاب المُشتعل ثم تُلقيه بسرعة على الأشياء، شعلة نارية صغيرة انتشرت على الأشياء وبدأت تأكلها أمام نظراتها المليئة بالشماتة والغلّ، أحست برائحة الأدخنة وهي تتصاعد وتعبق بالأجواء؛ لهذا السبب تراجعت بضع خطواتٍ إلى الوراء حتى تنفد بجلدها قبل أن تلتهمها هذه النيران.

تراجعت للوراء بسرعة حتى أوصلتها أقدامها إلى باب الحُجرة، جذبت المفتاح من الباب وأحكمت غلقه من الخارج باعتقادها أنها ستمنع انتشار النيران بتلك الطريقة، وكأن النيران تستطيع فتح الباب.

تسارعت أنفاسها وهي تتراجع للوراء وعيناها تمرّان على الشُعلة النارية التي برقت من أسفل الباب، آرادت أن ترحل بُسرعة في هذه اللحظة وتعود إلى الاحتفال قبل أن يُدركها أحدهم؛ لذلك هروِّلت باتجاه باب المنزل عازمة على الرحيل وتناسى الأمر حتى يبدو وكأنه مُجرد حادثٍ مُفجع.

تيبست أقدامها مرة واحدة حينما داهمها هذا الصوِّت، صوِّت طرقاتٍ حادة كانت تضرب الباب، ليس باب الخروج، بل باب الحُجرة الخاصة بوِّرد!!

-افتحو الباب .... الحقوني...

تعالى صوِّت الصُراخ والبكاء من داخل الحُجرة فتتسارعت نبضات قلبها وهي تتلفت صوِّب هذه الأصوات، ترى النيران تشتعل أكثر وأصوات الصراخ والأنين تنبعث من الداخل، يا إلاهي، لم تكن تعرف أن ورد داخل الحُجرة، لم تكن تعرف أنها أغلقت عليها وهي ... تُضرم النيران!!

تصاعدت أنفاسها وتخشب جسدها، ألقت المفتاح على الأرض وبقيت واثبة مكانها في حالة من التيه والضياع، تخشى أن تفتح الباب فترى جسد ورد المُحترق وربما تلتهمها النيران، تخشى أن تفشي ورد الحقيقة _بعد أن تنجو_وتخبر الجميع أنها أحرقت الحُجرة، وأنها أغلقت عليها الباب، فإن لم تُخبرهم ورد، فسيستنتج الجميع على أي حالٍ إذا أنقذتها.

لا تسمع سوى فؤادها ذو الضربات المتعالية، لا تسمع سوى ذلك الصوِّت الذي يُخبرها أن تهرب، وتتناسى الأمر، تتناسى هذه الصرخات المتألمة، وتتناسى شقيقتها التي يلتهمها النيران .... بسببها!!

آفاقت من ذكرياتها ونهرٌ من الدموع ينهمر على هدبيها، جسدها ينتفض بلوعة وعيناها قد انتفختا من كثرة البكاء والندم، هذا الذنب يطبق على أنفاسها طوال الحياة، ترى هذه الطفلة الصغيرة تصرخ وتستنجد في أحلامها، ترى هذه النيران تلوح أمام أعينها، وأحيانًا تتخيَّل أنها رأت ورد متُشحة بالنيران تبرز عظامها المُحترقة وعيناها الصغيرتان اللتان تنجحا بنحر عُنقها مِرارًا، فهي لا تتذكر أن ورد أسأت معاملتها يومًا، بل أنها تتذكر دائمًا محاولاتها المستميتة لسبر أغوارها ودعوِّها للعب معها وهي التي كانت تنبذها حتى ... قتلتها!!

يا إلاهي، كم لهذه الكلمة وقعٌ صعبٌ على مسامعها، فكلما تذكرت أنها فعلت هكذا تشعر وكأنها تقف على مقعدٍ خشبيٍ تنتظر حُكم الإعدام.

-مؤيد عرف بالصدفة .... وكان هيقولهم بس .... بس مقالش لحد عشان يحميني....

هكذا أردفت بين شهقاتها، تتذكر مؤيد الذي استمع إلى بكاءها ذات يومٍ وعلِم أنها كانت متواجدة فترة الحريق ثم بدأ يحاصرها بشكوكه حتى اعترفت له بدموعها وندمها، تتذكر غضبه الجحيمي وقتها وكم آراد أن يصرخ بها وينبذها، بل أنه لم يتحدث معها لسنواتٍ طويلة وهددها أكثر من مرة أنه سيُخبر الجميع لكنه في النهاية حافظ على كُتمانه حتى يحميها، ففي نهاية الأمر لم تكن سوى طفلة بالتاسعة ولم تكن تفقه أن أفعالها الصبيانية النابعة من الغيرة ستنتهي بتلك الفاجعة.

-مكنش قصدي .... والله مكنش قصدي...

أخذت تُهرتل بهيستيرية ازداد معها دموعها وبقيت لميس تطالعها في صمتٍ والصدمة تعتلي جنباتها، كان ذلك قبل أن ترفع فرح عينيها المتوُرمتين وترى هذه الصغيرة تتوُارى خلف أحد الأركان، ترى عينيها السوُداويتين ورداءها الأبيض الذي كانت ترتديه وقت وفاتها، تراها ساكنة تُحدق بها في صمتٍ وهدوء، وعلى عكس العادة، كانت فرح في حالة مهتاجة دفعتها للوثوب عن الأرض والعدو نحو ورد لتركع قبالتها حتى تنحدر دموعها على الأرضية الصلبة.

كانت أقرب إلى الهذيان وهي تتحدث وترتعد، تشعر وكأنها ستلقى حتفها على يد ورد التي أتت للانتقام منها.

-أنا أسفة .... أنا أسفة .... والله مكنش قصدي....

ضمت قبضتيها وأحنت جذعها أمام الصغيرة الساكنة التي تلاشى طيفها وما زالت فرح تهذي بهذه الكلمات وقد كانت أقرب ممن فقد صوابه، لا تتوُقف عن البُكاء والاعتذار وكأنها بتلك الطريقة ستتحرر من هذا السجن، أو كأنها تعتقد أن وجودها بتلك الحُفرة وهذه المُقبرة هو عقابٌ على ما اقترفته من ذنوب.

تراقبها لميس من بعيدٌ بملامح ساكنة تتحوّل تدريجيًا إلى أخرى مليئة بالغضب والوُعيد، تُحرك بصرها نحو اليمين فتجد الخِنجر التليد ساكنًا بأحد الأركان، سرعان ما مدت يدها نحو الخِنجر لتتلقفه بين أصابعها ثم تواصل التحديق بفرح التي ما زالت تبكي وتنوح وتعتذر.

قبضت لميس على الخِنجر بعينين غائرتين يحملان شُعلة من الانتقام وتحقيق القصاص، توّجه نظرة أخيرة صوّب فرح ثم تُحدق مُجددًا نحو الخِنجر وعقلها يُخبرها أن تنُفذ ما يُتلى عليها من أوامر!!

أشرقت شمس يومٍ جديدٍ بهذه الحياة الوبيلة، وفي ذاك المنزل الذي انقلب كيانه، يتحرك مؤيد صوّب الحُجرة ومعه صينية مُستديرة تحتوي على حساء الخُضار الذي ورغم جهله بالطهو سعى لطهيه بأفضل الطُرق وبالاستعانة بصديقته بالعمل التي أملته بعض الإرشادات.

ما زال عقله شاردًا يُفكر بشقيقته الضائعة التي لم يظهر أثرها لإسبوعٍ ويومين حتى الآن، لا يذكر أنها ابتعدت عنهما كل هذه الفترة من قبل، فحتى عندما كانت تسافر مع أصدقاءها لم تكن تتأخر عن يومين وتتصل بهما يوميًا، لكنها الآن، لا تتصل ولا تُجيب ولا يعرف حتى أين هي، هذا الأمر يقتله ويجعل الهواجس تجوّل بعقله، يشعر أنها ليست بخير، يقف عاجزًا أمام فقدانها رغم أن الضابط طارق يبذل ما بوّسعه حتى يعثر عليها، حتى أنه استطاع أن يفتح حاسوبها ويحصر الأماكن التي كانت تذهب إليها حتى وهي صغيرة.

وضع صينية الطعام على منضدة خشبية صغيرة ثم التفت صوّب والدته طريحة الفراش التي كانت تصارع الموت ببسالة، فتحت يُسرية عينيها لترى مؤيد قبالتها يدعوها للاعتدال وتناول الطعام، فهو لن يتحمل فُقدان والدته هي الآخرى، يكفيه شقيقته التي ماتت صغيرة وشقيقته الأخرى التي لا يعثر لها على أثر.

-ماما ... بالله عليكي قومي .... طب .... خُدي الدوا ونامي تاني

قبل كفها برقة وبدأ يمُلس على كتفها حتى حركت حدقتيها بوهنٍ وعيناها جافتان تُقطران وجعًا وقلقًا:

-فرح فين ؟ .... بنتي فين ؟

جاهد حتى لا يُذرف الدموع أمامها ويُخبرها أنهم لم يعثروا لها على أثر، جاهد حتى يُحافظ على ثباته ويهمها أن فرح ستعود وترتمي بين أحضانها، قبض على يدها الباردة المُجعدة وقبلها مجددًا وهو يجلس على ركبتيه قبالة الفراش، حافظ على تماسكه وهو يخُبرها بكذبٍ ودٌ لو أنه يتحوّل إلى حقيقة وينتهي من هذه المُعضلة:

-هترجع ... صدقيني هترجع .... طارق بيه قالي إنهم قربو يوصلولها

ادُّعى الثقة في حديثه وهو يُخبرها أن الشرطة لا تتوّقف عن البحث وستجدها عمَ قريب، وما كانت كلماته سوّى دافعًا ليُسرية حتى تنحدر الدموع من عينيها وتبدأ بالبكاء الخافت والدعاء لصغيرتها الفقيدة.

صدح صوّت الهاتف الخاص بمؤيد والذي لم يكُن يفارقه، فهو يتلقى مُستجدات القضية من خلاله، وجد اسم طارق يُزين الشاشة فينقبض فؤاده ويرفع جسده عن الأرض مُخبرًا والدته أنه سيُجري مكالمة مُهمة، فهو لا يُخبرها بمُستجدات القضية حتى لا تزداد انفطارًا، فالقضية تزداد تعقيدًا مع مرور الأيام ولا يوجد طرف خيطٍ واحدٍ يُخبره أين تقبع شقيقته، لذلك لن يُخبر والدته حتى يتأكد من عثورهم عليها.

ترك الحُجرة وبدأ يتحرك بسُرعة داخل المنزل حتى توّقف بالبهو، لاحت على ملامحه علامات اللهفة والاهتمام وهو يُجيب:

-ألو .... لقيتو حاجة ؟

أتى صوّت طارق من الجهة الأخرى مُحملًا بالقلق والارتباك:

-أه .... بس..

توّقف عن الحديث لينعقد لسانه ويشعر مؤيد أن هناك خطبٌ ما؛ سُلبت الألوان من وجهه وقد بدأ انفعاله يطفو على اليابسة وهو يقول:

-في إيه ؟

سرق طارق نفسًا عميقًا قبل أن يُطلقه وهو يجاهد حتى يُحافظ على ثباته، لكن لا، لا يوجد ارتباكٌ في عمله، يُجب أن يُخبره الحقيقة، حتى ولو كانت ضارية:

-أستاذ مؤيد أناا ..... أنا آسف .... بس...

ازدادت خفقات مؤيد وهو يستمع إلى ما تبقى من حديث طارق المُرتبك والذي كان:

-إحنا لقينا جُثة بنفس المواصفات إللي قولت عليها!!

الفصل السادس (دماء بين الأصدقاء)

تسألني متى سينتهي الظُلم، وأنا سأخبرك أنه لا ينتهي إلا بانتهاء الظالم، والظالم لا ينتهي سوى بنهاية العالم....

صوٌت لهيثها يعادل صوٌت هدير السماء الرعدية، قطرات المطر تتقاطر على جبهتها وتجعلها تصارع الحياة، أنفاسها تتصاعد وتهبط وهي تركض في تلك الممرات المُظلمة لا تعرف وجهتها لكنها تشعر بأن أحدهم يركض وراءها، أحدهم ينوٌي على قتلها وهي لا تعرف من ولا تعرف السبب، فقط تركض حتى كادت أنفاسها تنقطع، لا تلتفت خلفها حتى تتباطأ حركتها، لا تُفكر في هذه الأسئلة حتى لا تُعيق فرصتها للنجاة، فإن لم تنجو الآن، لن تنجو أبدًا..

أطلقت فرح شهقة من جوفها وهي تفتح جفونها بإرهاقٍ استشفت معه وجودها في هذه العُتمة، كم وٌدت لو تستيقظ من هذا الكابوس وتعود إلى منزلها الدافيء، كم وٌدت لو تنتهي هذه المحنة وتعود إلى حياتها الروتينية المملة.

شعرت بألمٍ جثيم يطبق على ركُبتها ويكاد ينحر عُنقها؛ جعدت وجهها من الألم وهي تعتدل وتنتشل طرف الوشاح حتى تحكم ربطه جيدًا حتى كادت تقطع قدمها المُصابة، كان السُم يتغلغل إلى جسدها رويدًا رويدًا، أصبحت غير قادرة على الشعور بقدمها أبدًا، بل أن السواد بدأ يطغي على سمانتها ويقترب من ركبتها التي آلمتها ألمًا شديدًا.

تتنفس الصُعداء وهي تسترخي بظهرها للوراء تكبح صرخة كادت تخرج من جعبتها، تناجي ربها الذي لا تذهب إليه سوى بالأزمات حتى تطلب منه السماح والمغفرة، فهي قد عُوقبت بما فيه الكفاية، تجرعت كؤوس الجوع والعطش والحسرة واليأس، ولم يعُد أمامها أي مجالٍ للنجاة، باتت تلعق الرمال من شدة العطش، تلتهم جلدها من كثرة الجوع، أضحى وجهها أقرب إلى من خرج من قبره توًٌا.

ترقرقت دمعاتها بوهنٍ على أهدابها وهي تسترخي للوراء مُستسلمة لقدرها، هذه حتمًا ستضحى نهايتها، لن يعرف أحدهم أنها ماتت وربما لن يعثروا على جُثتها، أو جُثة رفيقتها حتى، حاولت الهرب من الواقع عن طريق العودة إلى ذكرياتها الحبيبة،

لكنها كلما فعلت ذلك زادت ألمًا ووجعًا، لم تتخيَّل يومًا أن نهايتها ستضحى وحشية لهذه الدرجة، لن تتخيَّل أنها....

توَّقفت عن التفكير فجأة، حينما داهمها صوٌت همهمة يأتي على مقربة منها، لم تعُد تخشى هذه الأصوات أو الأطياف أو حتى تشُعر بالرهبة، لكن هذه الهمهمة كانت مُختلفة عن غيرها من الهمهمات، صوٌت عذبٌ رقيقٌ يُغني أغنية طفولية كانت تغنيها وهي صغيرة، وما كان صاحب الصوٌت سوى ... لميس!!

اعتدلت فرح في جلستها وعوالم الحيرة تطغي على نظراتها، ترى لميس تجلس قبالتها على بُعد أمتارٍ قليلة تُغني بصوٌتٍ عذبٍ رقيقٍ ونبرة حنونة تعجبت وجودها في هذه الأزمة، بل تعجبت أيضًا من صوٌت الاحتكاك الذي يصطك بتلك الأرضية وكأنها تُنقب عن شيءٍ ما بتلك الأرضية الصلبة.

-لميس ... لميس...

بدأت تنادي بصوٌتٍ مُجهدٍ خافتٍ وهي تتحرك صوٌب لميس التي تشعر أنها ليست على ما يُرام، تُريد أن تفهم ما الذي آصاب صديقتها ولماذا تتصرف بهذه الغرابة مُنذ قصٌت عليها فداحة ما فعلته بشقيقتها، فهي لم تجد من لميس سوى الصمت والهدوء والآن تُجدها تُغني أمامها وكأن شيئًا لم يكن، الأمر الذي يجعل حيرتها تتضاعف وتبُاشر السيٌر صوٌبها على أمل أن تفهم ما الذي تفعله.

ارتجفت يدها ما إن توَّقفت خلف لميس مباشرة، كانت تُريدها أن تنتبه لوجودها وتُخبرها ما ببالها؛ وضعت يدها على كتف لميس فتوَّقفت الأخرى عن الغناء والتفتت نحو فرح التفاتة مفاجئة، التفاتة جعلت فرح تبتلع غصتها بذعرٍ أطلقت معه شهقة مرعوبة، فما إن استدارت لميس حتى داهمتها هذه النظرات السوداء القاتمة مع تلك الدماء التي تنسل من فوٌهها، داهمها هذا الخِنجر المُلطخ بالدماء وهذا الجرذ الذي قامت بذبحه و....التهامه!!

-الفار ده قتل .... وكان لازم يتعاقب

بصقت لميس هذه الكلمات بنبرة عميقة مُجحفة رفعت معها الخِنجر لأعلى وكانت تهوٌي به على فرح التي أطلقت صرخة مذعورة أعقبتها بتغطية وجهها حماية، فكانت كلمات لميس لا توٌجه للجرذ، بل توٌجه نحوها هي!!

تقهقرت بضع خطواتٍ للوراء وعلامات الذعر لا زالت تكتنفها حتى...

-فرح!!

داهمتها هذه الكلمة القلقة التي جعلت فرح تستدير وتكاد تسقط على الأرض لولا يد لميس التي التقفتها، لميس التي كانت أمامها مُنذ قليل ترمقها بتلك النظرات الدامية المتوُعدة، وهي الآن تقف خلفها تتمسك بكتفها حتى لا تسقط على الأرض وملامح القلق تلوح على جنباتها.

تسارعت دقات فرح وما زال جسدها ينتفض ويُذكرها بهيئة لميس التي كانت على وشك نحر عُنقها بالخِنجر، بدأ عقلها يُخبرها أن هذه كانت إشارة لها عمَ يدوُر بخُلد لميس، فلميس الآن لم تعُد صديقتها الحنونة ذات القلب اللين، أصبحت جافة المشاعر يعلو وجهها نظراتٌ غامضة غير مفهومة، وكأنها تخفي سرًا.

أبعدت فرح يد لميس عنها بحدة كادت تسقط معها على الأرض، على وجهها نظراتٌ غاضبة وهي تهتف بوجه لميس:

-ابعدي عني .... إنتِ عايزة تقتليني

لم تفهم لميس حديثها فبقيت تطالعها بنظراتٍ حائرة أردفت معها:

-أقـ...أقتلِك_!!

قطعت فرح حديثها بصُراخٍ تحشرج صوُتها على إثره، فقد كانت أشبه بمن فقد عقله في تلك اللحظة:

-إنتِ عايزة تقتليني ... أنا شوفتِك .... إبعدي عني بقى

حاولت أن تبتعد عن لميس المصدومة من حديثها ومن صراخها وبكاءها، لكنها تعرف أن فرح لن تجد بقعة للاختباء وستظل في حالة التأهب والاستعداد التي رُبما تجعلها تقتل لميس في مرة من المرات عندما يهمها عقلها أنها بتلك الطريقة ستأمن حياتها.

-أنا فعلًا في صوت جوايا بيقولي أعمل كدة .... بس أنا مش بعمل ومش بفكر حتى

هكذا أردفت لميس وهي تتحرك صوٌب فرح التي ارتكنت على أحد الأطراف تدفن وجهها بين رُكبتيها وعيناها لا تتوٌقفان عن إذراف الدموع، جلست لميس قبالتها ترمقها بنظراتٍ صادقة تحمل بعضًا من الغموض وهي تقول:

-أنا صحيح كُنت بحسِدك دايمًا عشان عندِك عيلة وناس بيحبوكي وأنا معنديش حد .... بس من ساعة ما جيت هنا وأنا مفيش حاجة في دماغي غير إننا نُخرج .... نخُرج إحنا الاتنين

هدأت فرح قليلًا واستكانت أمام لميس التي كانت تُملس على ركبتها هاتفة بكلماتٍ مُشجعة:

-عارفة إنِك تعبانة وجعانة وعطشانة وكل حاجة ..... ويمكن عقلِك بدأ يوٌدي ويجيب، بس صدقيني هنخرج من هنا .... صدقيني الأيام دي كلها هتخلص

انهمرت دموع فرح بسكونٍ على أهدابها وهي تستشعر كل كلمة تقولها لميس، كل كلمة كانت تمدها بالصبر والمواساة، تمدٌها بالشجاعة والمثابرة وبعدم الالتفات إلى هذه الأوهام.

ابتعدت عن الجِدار ليلتحم صدرها بصدر لميس وتأخذها في عناقٍ دافيءٍ لعلها بتلك الطريقة تُربت على فؤادها المكلوم، لا يجب أن تُفكر الآن في آلامها وأوجاعها، يجب أن تُفكر في طريقة لمداواة هذه الأوجاع، وهذه الطريقة لن تعثر عليها سوى بمساعدة من لميس.

كانت حدقات فرح مصوٌبة صوٌب الخِنجر الملقي على الأرض قبالة الباب الذي أغلق عليهما، عقلها يُخبرها أن هذا الخنجر يحمل مفتاح النجاة، وربما يساعدهما على الرحيل، بينما كانت لميس على الجهة الأخرى، تعانق فرح بحرارة ونظراتها تتحوٌل إلى الخُبث والدهاء مرة واحدة، وكانت هذه النظرات .... سوداءٌ قاتمة!!

يجلس هذا الأستاذ الجامعي على مكتبه وأمامه حفنة من الملفات والأوراق، يتذكر محاضرته الأخيرة التي أذاعت صيٌته وجعلت الطلاب ينهلٌون في بحور المعرفة والعلم لعلهم يعثرون على معلوماتٍ كثيرة عن تلك المقبرة الملعونة، رغم أنه لا

يُصدق في هذه الخرافات وما زال متيقنًا أنها ليست حقيقية وأنه لا توجد مقبرة قد تبث روُح الانتقام في قلب من يدلفها وربما تجعله يهذي بأمورٍ غير صائبة، أو ربما أمورٌ يحاول عقله الهروب منها.

أمسك حفنة من الأوراق وبدأ يُرتبهم لتضحى كل ورقة متساوية مع قرينتها، وأثناء انشغاله بترتيب الأوراق، إذ يجد أمامه واحد من أنجب طلابه وأكثرهم فضولًا، يراه أمامه يُعدل من عوُيناته ويحمل كراسته الجامعية وحفنة من الأوراق وعلى وجهه بسمة واسعة وكأنه اكتشف اكتشافًا عظيمًا.

-دكتور خلدون....

انتبه الأستاذ إلى نداءه فاعتدل في جلسته ليوُليه الإهتمام، وكان الطالب يجلس أمامه بحماسٍ يمدُ قبالته أوراق بحثه الذي قضى الليالي في إعداده حتى أتت هذه اللحظة التي سيُقدمه فيه أمام أستاذه ويقنعه أن هذه الخرافة حقيقية وهناك شهوُدٌ أيضًا.

-دكتور خلدون ..... أنا عملت بحث عن الكلام إللي قولتهلنا في المحاضرة .... اكتشفت بقى...

بدأ يستعرض الأوراق أمام مُعلمه ثم يواصل الشرح:

-سنة ستة وسبعين .... في مجموعة من العُلماء حفرو خندق كبير عشان يكتشفو مقبرة الإلة باتا .... كانو خمس عُلماء، تلاتة منهم ماتو جوة المقبرة واتنين شهدوا على موتهم .... الاتنين بقى إللي شهدو .... كانوا بيقولو إنهم شافو حاجات غريبة، شافو ناس يعرفوهم من الماضي، وناس أذوهم .... وقالو إن التلاتة إللي ماتو .... واحد منهم مات بعضة فار .... وواحد قتل صاحبه راحو هما قتلوه...

فرُق بين الأوراق وهو يواصل الشرح أمام أستاذه الذي كان مبهورًا بهذه المعلومات:

-الاتنين إللي خرجو من المقبرة قررو يردمو الحفرة ورفضو يقولو مكان المقبرة .... وفي ناس بتقول إنهم اتجننو وواحد منهم انتحر والتاني دخل مصحة .... وفي سنة 1998 في عالم آثار ظهر في برنامج وقال إنه هيكتشف المقبرة دي

وهيرممها .... بعدها محدش سِمع عنه حاجة ... في ناس بتقول إنه اختفى ... وفي ناس بتقول إنه مات ... بس الأكيد ... إن ده كان بسبب المقبرة

فرُق مجُددًا بين الأوراق حتى توُقف عند آخر ورقة ليواصل الشرح بحماس:

-وفي سنة ألفين وتمانية .... في أم قدمت بلاغ وقالت إن ابنها اختفى بقاله شهرين .... كان اسمه رمضان عبد العزيز، وكان خبير في الحفر ومش لاقي شُغل .... اخته بقى قالت في شهادتها إنه كان رايح المقبرة دي هو وواحد صاحبه، فالشُرطة لما راحت هناك .... لاقو مكان الحُفرة وكان باين إن حد حافرها جديد .... بس لاقو كمان جُثة رمضان، إللي كان باين إن في حد قتله

أغلق الأوراق واعتدل في جلسته، يتأمل الذهول على وجه أستاذه ويواصل حديثه العلمي بطريقة مُستنتجة:

-الغريب بقى إن جثة صاحبه محدش لاقاها .... وكأنها اختفت .... ده غير إن الشُرطة مصدقتش إن المقبرة فيها حاجة، ومتخذتش أي إجراءات حيال الموضوع

بقي خلدون في حالة من الصمت يُفكر في هذه الكلمات ويربطها بالحقائق والأساطير، أهذا يعني أن المقبرة حقيقية ؟ أهذا يعني أنها بالفعل ملعونة !! لا، هذا لا يُصدق.

أحنى خلدون جذعه وهو يقترب صوُب طالبه يحاول أن يفهم حديثه رغم أن عقله لا يُصدق هذه الترهات:

-إنت قصدك إن الأسطورة حقيقية ؟

لاح الحماس على وجه الطالب وهو يقول باستنتاج:

-مش شرط تكون حقيقية ... بس المقبرة موجودة ... والحقائق أجمعت إنها مسكونة .... وإللي بيدخلها يا بيخرج منها مجنون، يا مش بيخرج أصلًا!!

أغلقت فرح أعينها بعد أن غشاها النوم وجعلها تسقط صريعة في كنفه، تقبض بيدها الأخرى على الخِنجر حيث كانت تستخدمه لإحداث تجوُيفٍ بالباب يساعدهما على

الخروج، تتحرك حدقتيها يمينًا ويسارًا إعلانا على غرقها في سُباتٍ عميق، وفي أحلامها العجيبة، حتى أنها لم تشعر بهذا الظل الذي يُغطي جسدها وتلك اليدان اللتان تقتربان من جسدها حتى انتشلت الخنجر من بين أناملها.

عينان حادتان كالصقر داكنتان كليثٌ يتقاطر الذبد من فمه قبل التهام فريسته، تقبض على الخِنجر بكلتا يديها وعلامات الحِقد تعلوها، ترى الإجهاد على وجه فرح وتتجاهله استجابة لنداء عقلها، عقلها الذي يُخبرها ويصرٌ عليها وتتجاهله مرارًا وتكرارًا حتى ضاق ذرعها وأضحت مُستعدة لنيل القصاص.

ترفع الخِنجر عاليًا بعد أن استكانت إلى قرارها، تطبق على أنفاسها بغلٍ وتحفُز، تُنفذ أخيرًا ما يقوله عقلها، تُنفذ هذه التعليمات التي تتُلى على مسامعها، ستستجيب إلى هذه النداءات حتى ولو كانت الضحية .... صديقتها!!

الفصل السابع (النهاية)

يفاجئني هذا الشبه الوبيل ما بين الحقيقة والهواء، فكلاهما أمامنا طوال الوقت، وكلاهما لا نستطيع رؤيته....

عينان سوداوان قاتمتان، وجهٌ بريء لطُخ بوحلٌ الحياة وأضحى كالذئب المُفترس وهو ينصمي على فريسته، يدان رقيقتان تقبضان على الخِنجر وترفعانه استعدادًا لدثره في جوٌف هذه الأحراش، يسيل الزبد من فمها وهي تتحرك بخطواتها الهادئة قبالة فرح التي غرقت في عالمٍ آخر يحفه الإرهاق والخيالات المُدمرة، برقت لميس بعينيها وبدأت تلتقط أنفاسها، تُشدد من مسكة الخِنجر ومن نظراتها المتوٌعدة قبالة فرح التي لم تكن تعي ما يُحدث، أو ربما ترى ذلك في أحلامها.

ركعت على رُكبتيها وتصاعدت أنفاسها حتى بدت أشبه بمن كان في سباقٍ للعدو، وما كادت تنحر عُنق هذه النائمة حتى...

انتفضت لمُيس انتفاضة متفاجئة عندما وجدت عينا فرح تُفتحان مرة واحدة، يليه جسدها الذي اعتدل على الأرض حتى توٌاصل العمل؛ ارتبكت لميس وألقت الخِنجر على الأرض لترمق نظرات فرح الحائرة والمُتشككة، لكنها مع ذلك كانت تتجاهل هذه الشكوك وتجوب بعينيها في كل مكانٍ بحثًا عن الخِنجر، إلى أن وجدت لميس تمدٌه نحوها متفوٌهة:

-كـ...كُنت جاية اساعدِك

أنهت الحديث ببسمة زائفة زادت من عوالم الشك لدى فرح لكنها مع ذلك التقطت منها الخِنجر والتفتت مجددًا صوٌب الباب لتواصل ما كانت تفعله، فقد كانت تُحاول إحداث فجوة بالباب بواسطة هذا الخِنجر الحاد، وكانت تفعل ذلك طيلة الأسبوع حتى استطاعت بعد عناءٍ، أن تُحدث فجوة بسيطة يعادل حجمها حجم كفٌين ملتصقين.

تناثرت زرات الرمال على وجهها وهي تحاول إطناب الحُفرة، وكانت لميس تقف خلفها تراقبها من بعيد في حالة من الصمت وأحيانًا تحاول التدخل.

برقت عيني فرح مرة واحدة حينما داهمتها هذه الأصوات، لا، ليست هذه الأصوات التي تستمع إليها وتؤرق منامها، بل أصواتٌ أخرى، أصواتٌ مُفعمة بالحيوية، مُفعمة بالاستجداء والمناداة، أصواتٌ...

توٌقفت عن التفكير ما إن أدركت ماهية هذه الأصوات، سرعان ما ازدادت خفقات فؤادها وهي تلتفت صوٌب لميس وعلى ثغرها ابتسامة واسعة زيٌنت شفتيها اللتان كانتا تقولان بلهفة:

-فـ...في حد .... في حد جيه....

رفعت من نبرة صوٌتها وهي تتحدث بسعادة وعدم تصديق، متيٌقنة أنها تستمع إلى تلك الأصوات وتلك الأقدام التي تضرب سفحة الأرض وحوٌلها العديد من النداءات والأوامر، ها قد أتت أخيرًا فِرق الإنقاذ، أتت بعد أن كادت تفقد الأمل وتُسلم الروٌح إلى بارئها.

زادت من سُرعة حركاتها وهي تضرب الباب بالخِنجر وتصيح بأعلى صوٌتها، واصلت الصياح والاستنجاد لكن يبدو أن صياحها كان هباءً منثورًا، فلا أحد يستمع لها، ولا أحد ينتبه لوجودهما.

سُرعان ما ألقت الخِنجر على الأرض لتُدثر أناملها الواهنة بهذا التجوٌيف الذي أحدثته ثم تباشر بدفع الباب نحو اليسار، همٌت لميس لمساعدتها وقد بدأت تعود إلى سابق عهدها، وكأن هذه الأصوات بمثابة أملٍ آعاد إليهما الحياة وبدد هذه الأفكار السوداء التي كادت تلتهم عقولهما.

طغي اللون الأحمر على وجهيهما وهما تدفعان الباب بكل ما أوتيا من قوة، نفرت عروقهما وبدأت قطرات العرق بالانسلال على الجِباه، ومع ذلك واصلا الدفع بمَ تبقى لهما من قوة، حتى ولو تحطم جسدهيما إثر هذا الدفع، فهذه هي الطريقة الوحيدة للنجاة.

كانت فرح تكبح آلامهما وهي تضغط على جرحها وعلى قدمها التي لم تعُد تشعر بها، تواصل الدفع برفقة لميس حتى لفحت نسمات الحُرية وجهيهما وظهر القليل مما خُفي خلف الباب.

واصلا الدفع بقوة تزداد أكثر حتى كادت عظامهما تتحطم، اتسعت الفجوة ما بين المقبرة والحرية وبات هناك سبيلٌ للنجاة، لكن الباب ما يزال ثقيلًا وإذا تركاه سيُغلق ولن يُفتح أبدًا، أمسكت لميس بطرف الباب وكانت تحث فرح بعينيها على المُضي قِدمًا، وكانت فرح تستجيب لنداء صديقتها وتتحرك بوُهنٍ صوُّب المِخرج ثم تُلصق جسدها النحيل بهذه الفتحة الصغيرة حتى استطاعت أخيرًا المرور إلى الجهة الأخرى، وما إن تحررت من هذه المِقبرة حتى....

صوُّت اصطدام الباب كان يعادل اصطدام قُنبلة نووية بضاحية صغيرة؛ انقبضت أوزار فرح وهي ترتمي على الأرض بعد أن سيُطر عليها الألم ولم تعُد قادرة على الوثوب، بينما بقيت لميس داخل المُقبرة بعد أن غُلق الباب مرة واحدة ولم تجد ما يكفي من الوقت للتحرر من هذا السِجن.

تصاعدت أنفاس فرح وهي تحاول الاعتدال عن الأرض والحبو صوُّب الباب بأنفاسٍ لاهثة، كانت تحاول العثور على أية فجوة تساعدها على فتح الباب مُجددًا لكنها لم تجد، فالفجوة الوحيدة كانت من الداخل فقط.

طفقت تطرق على الباب بحدة وتنادي لميس بصوُّتٍ مُرتفع، تدعوها لمحاولة فتح الباب لكن الأخرى تجد الأمر مُستحيلًا، فالباب ثقيلٌ لدرجة تمنعها من فتحه وحدها.

-لمـــيس ... لميس...

واصلت طرق الباب وهي تناديها والدموع بدأت تنحدر على أهدابها، لا يسعها الرحيل بلا صديقتها، لا يسعها أن تتخلُّى عنها بعد ما مرُّا به سوُّيًا، وكانت لميس من الجِهة الأخرى تترقرق الدموع على وجنتيها الملاصقة للباب وصوُّتها العذب الذي يحمل لمحة الاستسلام يتسلل بين طيُّات هذه الحجارة السميكة عازمًا على الوصول إلى أذني فرح:

-إمشي يا فرح ... روحيلهم...

كانت أصوات رجال الانقاذ قد بدأت تتغلغل أكثر داخل الحُفرة مما جعل لميس تتلو هذه الكلمات، لكن فرح لم تتحرك من مكانها وواصلت الطرق بحدة ثم تحاول دفع الباب بيديها الرقيقتين التي سال منهما خيُّط من الدماء بسبب محاولاتها المُستميتة:

-لأ مش هسيبِك

قالتها فرح بدموعٍ مُتحشرجة وهي تواصل دفع الباب بينما كانت لميس تُخبرها بلكنة مليئة بالإصرار مشوُبة بالدموع:

-إمشي يا فرح هُما بيدوّرو عليكي إنتِ .... أنا محدش أصلًا بيفكر فيا

خفتت طرقاتها مرة واحدة وهي تستمع إلى تلك الكلمات الأليمة، زادت دموعها وهي تستقبل نبرة لميس المُنكسرة، نبرتها المُحطمة التي تُخبرها أن لا أحد يهتم لوجودها وربما لم يُلاحظ أحدهم غيابها حتى، فحتى عمتها التي تدّعي حُبها، ستتناساها ما إن يأتي ابنها من السفر.

-بس أنا عايزاكِ .... أنا مش عايزة اسيبِك

هكذا أردفت فرح لتنسال الدموع أكثر على أهدابها وهي تستقبل سكون لميس من الجِهة الأخرى، هذا السكون قد طالت مُدته حتى بدأ القلق يتسرّب إلى قلب فرح، لكنه تبدد حينما لاحظت أنفاس لميس تخترق فتحات الباب مع صوّتها الأشبه بعبيرٍ يدق بيادق السماء المقفرة:

-متقلقيش .... أنا هفضل معاكِ دايمًا

أنهت فترة الصمت بتلك الكلمات الهادئة والغامضة التي ملأت فرح حيرة وقلقًا، لكنها لم تسمح لهذا القلق أن يستمر طوّيلًا وحاولت الوثوب عن الأرض رغم ألمها المتفاقم ورأسها الثقيل، كفكفت دموعها وهي تقول بنبرة مطمئنة:

-أنا ... أنا هقولهم ييجو ... متخافيش...

قالتها بأنفاسٍ مُرتبكة متضاربة طفقت بعدها تتحرك بقدمٍ واحدة وتُسرع من خطواتها الواهنة على قدر الإمكان، تتبع هذه الأصوات التي كانت تخترق الحُفرة، تتوّقف عن السيُّر مرة واحدة حينما كاد الألم يقتلها، تُشدد من ربطة الوشاح حتى كادت تقتلع ركبتها، لا تُفكر سوى بلميس المسجونة بتلك الحُجرة، تُفكر بلحظاتها الهادئة وذكرياتها الجميلة، تُفكر بصديقتها التي كانت معها بجميع الأوقات حتى اقتحم حياتهما هذا السُم الذي كاد يُنهي العلاقة بينهما.

كان الألم قاتلًا في تلك اللحظة التي أدركت فيها أنها تحاملت كثيرًا على جرحها وهي تفتح الباب، جسدها مُلطخٌ بالأتربة والرمال، وجهها مليءٌ بالكدمات والجروح، جرح رأسها ما زال يُحدث طنينه ويجعل الرؤية مشوّشة، طيُّف هذه الطفلة الصغيرة لم ينفك يتركها ويظهر أمامها مجُددًا بتلك العينين القاتمتين وهذه النظرة الغامضة التي لم تعُد تُخيفها.

صوُّت الأوامر والخطوات المهرولة المحسومة كانت تضرُّب آذانها وتجعلها تتحامل على نفسها أكثر، تتحمل معدتها التي تلتهم بعضها من الجوُّع وحلقها الذي تشقق من العطف وألمها الذي أصبح حجارة ثقيلة يتفرع منها الخناجر لتنحر سائر جسدها مرارًا وتكرارًا، تتحمل هذه الأهوان وتواصل السيُّر على قدمٍ واحدة، ترفع يدها بوهنٍ لعل أحدهم يستطيع رؤيتها، تحاول الحديث لعل أحدهم يستمع إليها، ترى قبصًا من الضوء يظهر أمامها مع أطيافٌ حقيقية بدأت تهرول نحوها.

كانت تُريد أن تُخبرهم عن صديقتها المسجونة، تُريد أن تطلب منهم المساعدة، لكن يبدو أن جسدها لم يعُد يتحمل المشقة، فقد كانت تسير لعدة أمتارٍ حتى تصل إليهم، تسير وتتحمل ضروب الأوجاع حتى لم يعُد بجسدها ولو ذرة طاقة واحدة، حاولت تنظيم أنفاسها المُتقطعة حتى تستطيع الاستنجاد، لكنها تجد الظلام يحُيط بها وجسدها يتراخى مرة واحدة وكأنه كان ينتظر تلك اللحظة .... لحظة الوداع!!

كانت فِرق البحث تجول داخل الحُفرة بحثًا عن أي خيطٍ يساعدهم على البحث، قبض طارق على سلاحه بعد أن انسل الدرجات الخشبية وعلى ملامحه علامات الصرامة والترُّقب، ليس متيُّقنًا مئة بالمئة أنها في هذه البُقعة، لكنه المكان الوحيد الذي لم يُغرقه برجال بحثه، فهو قد وُعد مؤيد بالعثور على فرح مهما تطلب الأمر، وعندما استطاع أن يخترق حاسوبها، وجد العديد من الصوُّر لها وهي صغيرة في تلك الحديقة، الأمر الذي جعله يسأل مؤيد عن هذا المكان ويُخبره الآخر أنها كانت تلهو مع صديقتها هنا، في هذه الحديقة، وبعد بحثٍ وتنقيب، استطاع أن يعُثر على بعض الأدلة التي أكدت له أنها هنا، وأنه سيفي بوُعده لصديقه مؤيد الذي كان يرافقه أيام المدرسة.

قبض طارق على سلاحه وطفق يخطو داخل الحُفرة وعيناه كالصقر وهو يجوِّب في كل مكان، لم يكن يوجد حوْله سوى الظلام، الظلام فقط، حتى أنه تعجب وجودها في بقعة مقفرة كهذه طوال هذه الفترة.

لا يعلم لماذا يحمل سلاحه، ربما ظنٌ أنها عصابة خطيرة تختبيء تحت الثُرى، أو ربما قاتلٌ مُتسلسلٌ يخطف ضحاياه ويُهتك بأعضائهم بعيدًا عن الناظرين، أو من الممكن أن.....

انتفض جسده مرة واحدة إثر جسدٍ صغير انقض على كاحله وجعله يُطلق رصاصة مذعورة من جوْف سلاحه جعلت الدماء تتناثر من هذا الجِرذ الذي ظنٌ أنه سيلتهم هذا الضابط؛ استمع طارق إلى صرير الجِرذان وهي تفرٌ من حوْله بعد أن رآت زميلها مُضرجًا بالدماء.

وضع يده على صدره ليُهديء من نبضاته المتسارعة بسبب رهبة المكان، لا يشعر بالراحة أبدًا، بل يشعر بطاقة سلبية تجتنح طياته وتجعله أكثر خوْفًا، ومع ذلك تحدٌى هذا الخوْف وواصل السير بين الممرات المُظلمة بعد أن أمر فرقته بالانتشار داخل الحُفرة، خطواته الهادئة كانت تجتمع مع سكون الظلام وحشحشة الحصا، خطواتٌ ضئيلة هادئة رزينة يقطعها همساتٌ تخترق مسامعه!!

توْقف عن السير ليلتفت وراءه بحثًا عن مِصدر الصوْت، فربما هو صوْت الفتاة التي يبحث عنها، لكن لا، هذا ليس صوْتها، ولا صوْت فتاةٍ من الأساس، بل هو صوْت رجل، رجلٌ يئن من الوجع!!

جحظت عيناه وتخضب فؤاده رهبة واستعدادًا وقلقًا، تقهقهر إلى الوراء وبدا أسيرًا لهذا الصوْت الذي استوطن آذانه، يتحرك مسلوب الإرادة خلف صوْت الأنين، فربما هناك أحدهم يُريد المساعدة، وهو لن يتأخر عن رد المحتاج أبدًا.

أخفض سلاحه وأسرع من خطواته قُرب هذا الصوْت، وجد ذاته في بُقعة نائية يزداد فيها الظلام، ويزداد فيها حِدة هذا الأنين، قطب حاجبيه بإصرار وطفق ينادي وهو يتحرك إلى الداخل:

-مين إللي هنا ؟

وكانت إجابة سؤاله هو المزيد من الأنين الذي يجعل الحجارة تنفطر، واصل طارق السير بهدوءٍ وداخله مزيجًا من الحيرة والترُّقب، حتى أنه ظنٌ لوهلة أن هذا الصوُّت لم يكن سوى عقله، لكن فجأة...

توُّقف عن السيُّر لتداهمه بقعة دماءٍ سوداء طازجة، وجد ذاته فجأة، يقف بين بُقعة كبيرة من الدماء حتى تلطخ كاحله وازداد فؤاده ذعرًا، فمن أين أتت هذه الدماء الغزيرة ومن هو صاحبها ؟ كانت الرهبة تعتمره وهو يتلفت حوُّله في رهبة لعله يجد هذا الرجل المُصاب الذي ينزف الدماء، بقي يتلفت حتى...

أحس بحوافر حادة تقبض على قدمه وتُغلغل آظافرها بجلده؛ انتفض طارق إثر هذه الحُركة فشدد القبض على سلاحه وكان على وشك إطلاق النيران فيمن يتمسك بقدمه بهذه الطريقة، لكن فجأة....

-طارق بيه...

انتفض طارق وهو يرفع قامته محافظًا على رباطة جأشه وهو يلتفت صوُّب زميله الأقل رُتبة، لاحظ زميله هذه الرهبة التي تعتلي وجه قائده فكان يسأل بقلق:

-في حاجة ؟

ارتبك طارق وهو يخفض بصره لعله يُري زميله ما وجده ويساعده على سبر أغوار هذه الحيرة، لكنه لم يجد شيئًا، لم يجد دماءً أو أنينًا، أو حتى هذه اليد التي قبضت على قدمه، كانت أرضية صلبة عادية لا يحفها سوُّى الحِصي والأتربة، الأمر الذي زاد من حيرته حتى ظنٌ أنه فقد عقله، كان متيُّقنًا أن زميله لن يُصدق هذه الترهات التي رآها لذلك قرر أن يتدارك الأمر بكلماته:

-لأ مفيش .... لقيتو حاجة ؟

أومأ زميله إيجابًا وهو يقول بكلماتٍ صارمة واثقة:

-أيوة يا فندم .... لقينا الأنسة فرح....

لمحاتٌ من الذكريات تُعرض أمامها، ذكرياتها وهي صغيرة ترتدي ثوٌبها الوردي الصغير، وهي كبيرة تتسلم شهادة انتهاءها من المدرسة، والدتها وهي تُمشط شعرها، شقيقها وهو يشاكسها، كل تلك الذكريات وغيرها تُعرض أمامها وكأنها تعايشهم للمرة الثانية، ورغم أن ذكرياتها تنقلب إلى أخرى سوٌداء مرة واحدة، إلى أنها استطاعت أخيرًا التحرر من الظُلمة، والعودة إلى أواصر الحُرية.

صوٌت الصفير الخافت كان يضرب آذانها وهي تفتح عينيها بوٌهن، ترى المحاليل مُعلقة بجوارها وموٌصلة بوٌريدها، ترى البياض يغمر طيات الحُجرة ويجعل عيناها تشعران بالغرابة، فقد اعتادت الظُلمة لفترة جعلتها تتعجب الإنارة.

جسدها يلتصق بالفراش لا تستطيع تحريكه، فاهها مُلتصق لا يساعدها على الحديث، تشعر بالإعياء لدرجة تجعلها تعتقد أنها فارقت الحياة، وأنا لا أحد يشعر بطيفها، جسدها المُحطم أكد لها أنها مُستلقية على هذا الفِراش لفترة طويلة، فترة قد توٌقفت عن حسبانها.

-فرح ... فرح إنتِ كويسة ؟

آفاقت على هذا الصوٌت الذي خرج من شقيقها المكلوم وتبعته والدتها التي كانت دموعها تنحدر لا تعلم إن كان ذلك بسبب السعادة أو الحُزن، ترى والدتها تنصمي عليها تساعدها على الاعتدال ثم تعانقها بقوة وكأنها لا تُريد مفارقتها، كانت فرح ما تزال مُغيبة لا تستطيع الحديث، لسانها ثقيلٌ ثِقل الفيل وعقلها لا يستطيع التمييز، تشعُر فقط بدموع والدتها التي تنحدر على تلك الملابس التي ترتديها والتي كانت رُقعة بيضاء خفيفة يتم ارتداءها بالمشفيات.

قرٌبت يُسرية خُصلاتها وهي تُقبلها عدة قُبلات بينما كان مؤيد يرمقها بفؤادٍ مُتضارب ويقبض على آناملها مُنتظرًا أن تبدأ الحديث، وما زالت فرح في عالمٍ آخر تتذكر فيه هذه الأيام السوٌداء التي قضتها بالحُفرة و...

توٌقفت عن التفكير ليصدمها هذا الفراغ المجاور لقدمها اليُمنى، تحرك يدها صوٌب هذا الفراغ وفؤادها يتضارب في هلعٍ، لهذا السبب لم تشعُر بالألم عندما استيقظت، لهذا السبب لا تستطيع الوثوب عن الفِراش بشكلٍ جيدٍ، هذا لأنهم ... بتروا قدمها!!

ما كادت تفيق من الصدمة حتى تدخل مؤيد ليُطمئنها بحديثه الداعم:

-الدكتور قال إنها لازم تتبتر .... وإلا السم كان هينتشر في جِسمِك كله .... بس متقلقيش، أنا كلمت الدكتور وقُلتله نعملِك طرف صناعي ... بس لازم الجرح يلِم الأول.....

بقي يتحدث بلهفة عن الأطراف الصناعية وبأنه سيساعدها هو ووالدته حتى تعتاد السير بقدمها المبتورة وكيف سيضحى بجوارها حتى لا تشعُر بالقهرة أو الوجع، لم يشأ أن يسألها ما حدث حتى لا يفتح جرحها ويزيدها ألمًا، فقط يُخبرها أنها غابت عن الوعي لإسبوعٍ كاملٍ استدعى دخولها المشفى وإجراء عملية البتر ثم وضعها تحت المراقبة حتى يستعيد جسدها حيويته، وكانت فرح في عالمٍ آخرٍ لا تنتبه لحديثه، بدأت تعود إلى الواقع وتتذكر آخر لحظاتها، لحظات الوداع!!

سرعان ما تسارعت نبضات قلبها وبدأت تتلفت حوٌلها في ذعر، هل قال أنها غابت عن الوعي لإسبوع كامل ؟ هل قال أنهم وجدوها فقط داخل الحُفرة!!

-لميس ... لميس فين ؟ .... لميس فين لازم نساعدها....

بقيت تصرخ بوجهيهما وتتحرك بهيستيرية كادت تجعلها تسقط من الفراش، تقدمت نحوها والدتها وحاولت تهدئتها لكن فرح صرخت بوجهها دون الاكتراث لكونها والدتها:

-بقولكم لازم نساعدها .... مينفعش نسيبها ....

دفعت والدتها بعيدًا عنها وبقيٌت تصرخ بارتعادٍ وتحاول الوثوب عن الفراش مُتحدية حالتها الصحية، الأمر الذي جعل مؤيد يرمقها بذعرٍ ويقبض على يدها حتى تتوٌقف عن الحِراك وتأذي نفسها، فهي قد بدأت بنزع المحاليل عن جسدها حتى تثب عن الفراش وتبحث عن صديقتها، فإن كان العالم لا يُريد إنقاذها فستفعل هي، ستذهب إلى تلك الحُفرة وتتأكد أنها تحررت، فهذا هو واجبها.

شدد مؤيد من قبضته عليها وزادت هي من حركاتها الهيستيرية وهي تدفعه وتصرخ بوٌجهه:

-سيبني ... سيبني لازم أساعدها .... لازم انقذ لميس

-لميـــس ماتت!!

بصق مؤيد بوجهها هذه الكلمات حتى تتوّقف عن الحراك، وما كانت كلماته سوًى سهامٌ ألقيت عليها ونحرًت عُنقها، ازداد جسدها ارتجافًا وهي تستمع إلى تلك الكلمات القاسية التي لا يُريد عقلها أن يُصدقهم، لا، لميس لم تمُت، فقد كانت معها بالحُفرة، كيف تخلّت عنها فرق البحث وتركوها حتى الموت، لا، هذا ليس صحيحًا.

بدأت تُحرك رأسها نفيًا وفؤادها لا يتوقف عن الصعود والهبوط، لا تُريد أن تُصدق ما يقوله مؤيد، فربما يقول ذلك حتى تتوّقف عن الحِراك وتحافظ على صحتها، وهي لن تفعل ذلك طالما صديقتها بين شقي الرحى.

-لـ .... لـ..لميس !! .... لأ .لأ ..لميس كانت معايا في الحُفرة ... أنا ... أنا لازم أنقذها ... لازم أنقذها...

انهمرت دموعها وهي تحاول التحرر من قبضته ووالدتها تقف خلفها تراقب صغيرتها بدموعٍ تنسل على أهدابها.

-يا مؤيد سيبني عايزة أنقذها .... أبوس إيدك خليني أنقذها من الحُفرة....

بقيت تتوّسله بتلك الكلمات حتى يتركها لكن مؤيد جاهد حتى يحافظ على ثباته وهو يبصق أمامها الحقيقة الصادمة:

-لميس مكانتش في الحفرة ..... لقو جُثتها في الجنينة، وقعت على صخرة وجالها ارتجاج في المُخ وماتت.....

أنهى الحديث بكلماتٍ ثقيلة وعينان لا تستطيعان مواجهة عينا شقيقته، فهو لم يكن يريد أن يُخبرها أن صديقتها قد لقت حتفها، رغم أنه ظنٌ أن فرح تعرف الأمر، وتعرف السبب أيضًا، لكنه يتعجب من علامات الاستنكار التي كانت على وجه الأخرى، يتعجب من تصديقها أن لميس كانت معها بتلك الحُجرة رغم أن الطبيب شرعي قال أنها لقت حتفها في نفس اللحظة التي اختفت بها شقيقته، أي أنها ماتت مُنذ أكثر من إسبوعين!!

تراخى جسد فرح وهي تستقبل هذه الصدمة وما زال الإنكار يطغي على جنباتها، كيف يُخبرها أن لميس لم تكن معها بالحُفرة، وأنها طوال هذه الفترة كانت وحدها!!

سرعان ما بدأت تُحرك رأسها نفيًا وشفاهها لا يقول سوى كلمة " لا " ... هذا مُستحيل، لميس كانت معها، هي لم تكن وحدها....

سرعان ما بدأت باستعادة وعيها والعودة إلى الذكريات، الذكريات التي كانت تنفر منها وتضعها في خانة الأوهام، تتذكر هذا العراك الذي نشب بينها وبين لميس، تتذكر تطاولهما بالأيدي وتراشق صرخاتهما، تتذكر...

تتذكر دفعتها القوية التي جعلت لميس تتعركل وتسقط لترتطم جمجمتها بتلك الصخرة التي كانت تشهد على صداقتهما الحميمة، والآن تشهد على جريمة شنعاء، تتذكر نبضاتها المتسارعة وهذا الصوٌت الذي يحثها على الهروب، نفس الصوٌت الذي كان يحثها على الهروب عندما قتلت شقيقتها الصغيرة، وهي الغبية التي ظنُته بسبب ذكريات الماضي اللعين.

كانت الإشارات أمام عينيها طوال الوقت، هذا الحُلم الذي رأت فيه عائلتها تلتهم يديها على العشاء، يديها التي تسببت بقتل نفسٍ بريئة...

كلمة " اهربي " التي كانت تتردد على آذانها طوال الوقت، تصرفات لميس الغريبة، نظراتها الجامدة، وسكونها غير المُعتاد، وكلماتها الغامضة...

كلمة " اقتليها " التي قالتها لميس، والتي كانت نتاج عقلها الذي يُخبرها أن صديقتها ستسعى للانتقام وستحاول قتلها، لذلك كانت تتخيلها دائمًا تحمل هذا الخِنجر وتحاول قتلها، تتخيٌل عيناها السوداوتان القاتمتان، تتخيلٌ كلماتها الغامضة التي انتهت بـ...

"أنا هفضل معاكِ دايمًا"

هذه لم تكن جملة مجازية عابرة، بل كانت حقيقية، كانت تسمعها من طيٌف لميس الذي يُخبرها أنه لن يُفارقها!!

ارتجف بدنها أكثر وانسالت الدموع على الشرشف الأبيض الذي استحال لونه صفارًا، ما زال جوٌفها يُرتل كلماتٌ غير مترابطة، ما زال عقلها يؤلمها من فرط التفكير، ما زال لسانها يُردد كلمة لا ويسمح المجال للأوهام باختراق المجال.

لا تُصدق أن لحظة بسيطة تعادل غمضة عين، باستطاعتها أن تقلب حياتها رأسًا على عقب، لا تُصدق أن عقلها عبث بها وجعلها تتوّهم صديقتها وتحادثها طوال هذه الفترة، عقلها الذي حاول جاهدًا أن يخفي الحقيقة، حقيقة أنها .... قتلت صديقتها!!

((تمت بحمد الله))

البداية : 19 / 11 / 2024

النهاية : 1 / 12 / 2024